معتز
عرفان

رواية



نباح الكلاب في الباحة الخلفية

دار عرفان للنشر

معتز عرفان

نباح الكلاب في الباحة الخلفية

دار عرفان للنشر

نباح الكلاب في الباحة الخلفية

"إن كنت تبحث عن الممازحة، فإنني أمقتها، وإن كنت تفتش عن الرزانة، فإنني لا أطيقها، أنا كائن متأرجح يظهر حكمة تخفي الهراء وراءها، أنا كيان يتمرد من أجل التمرد دون مبررات واضحة، أنا ابتسامة الموناليزا الجامعة بين الحزن والفرح، أنا رجل يحاول أن ينقذ عقله من صحراء كلما فر منها سرعان ما عاد إليها في لمح البصر."

مجهول

-1-

ها هي تنبح و لا ترغب في التوقف، تنبح ويتعالى نباحها، تنبح وترافقها سيمفونية الذكريات الأليمة واللحظات الخبيثة والأحداث المقيتة. انقطاعها صار حلما لا يدرك، انخفاض ضجيجها أصبح مستحيلا، والتخلص من تأثيراتها لم يعد ممكنا.

إنه نباح بلا فاصل، نباح يحمل وراءه الكثير من المآسي والمرازئ، ورغم ذلك لا مناص من محاولة إخماده والتخلص من بواعثه. لكن التشتت قد نال من البواعث، والعشوائية قد سيطرت على الموقف، فاختلطت الأمور وصارت جميعها في بوتقة واحدة، بصورة غريبة لا يمكن التعرف على ماهيتها أو التطرق إلى حقيقتها عن كثب.

إن الفراغ يسيطر على العقول، وانبثاق الأفكار لا يعرف طريقة واضحة، فتخرج الأمور دون تنظيم وتطرح المسائل دون قدرة على التفاهم أو التعامل.

لطالما كان النباح أمرا لا يمكن الاستغناء عنه، لكن الفواصل كانت قادرة على منحه بريقا خاصا، أما غيابها الذي أصبح محققا في الآونة الأخيرة أفقده ما كان يتمتع به وصنع منه ضجيجا مؤذيا يصعب التعامل معه ويعجز المرء عن التفاعل أثناء وجوده. ورغم ذلك، من الممكن معاملته كضوضاء بيضاء، ومن المتاح تجاهله في بعض اللحظات، لكن التجاهل في هذه الحالة يعد ضربا من الوهم، ولولا الوهم لكان الموقف أكثر غرابة وفظاعة.

توجهت إلى النافذة المطلة على الشارع، نظرت إليها من الأعلى، حيث الدور الثالث، صرخت فيها بشدة محاولا أن أنخفض بوتيرة نباحها التي لا تدرك سكونا. لكن عنادها حال بيني وبين الوصول إلى مبتغاي، ولم تكتف بتصميمها على مرادها، لكنها واصلت نغمتها وسيمفونيتها الغريبة، تلك السيمفونية التي جمعت بين المآسي والمسرات في أوقات محددة، وركزت على المآسي وحدها في أوقات أخري عديدة.

وكأنها حالة من التباس الأحاسيس، حالة يضحك فيها المرء مقهقها بينما ترافقه دموعه التي تتساقط بغزارة. وفي نفس الوقت، يعد الالتباس التباسا غريبا يجمع بين التطرف فيما يخص الأحاسيس وغياب المنطق فيما يخص الأفعال.

إن الباحة الخلفية مفعمة بالكثير من الكلاب، كلاب لا ترغب في السكون، وكأن سكونها أمر عسير، وكأن برمجتها لا تعرف سوي هذا الإطار وإدراكها لم يشهد سوي هذه الوتيرة منذ أن وجدت وتنفست أنفاسها الأولي.

إن النباح يتصل بالشرور، يتعلق بالأحداث المؤثرة، وتتعالى وتيرته مع الإحساس بالضياع والفقدان. وهو ما يؤكد حقيقة الألم، ذلك الألم الوجودي الذي يلم بالجميع، ورغم ذلك يتكيف المرء معه في نهاية المطاف بهدف المضي إلى الأمام.

إن سذاجتنا جلية، سذاجة توطد بطعام شهي أو جنس بهي أو سيجارة أنيقة أو حشيشة غريبة أو خمر لعينة. لكن الغريب في الأمر هو أننا ندرك الحقيقة، ورغم ذلك نصمم على أفعالنا

ونتباهى بأقوالنا، رغم عدم التطابق بين الحديث المعلن والتنفيذ المسند.

إن التآكل يتصل بالطيش، ورغم إدراكنا له، إلا إننا عاجزون عن التخلص منه إذا سمح لنا بإعادة التجربة. فإذا منحنا فرصة جديدة، عمدنا إلى كل ما قمنا به مع الفرصة القديمة، وإذا عزمنا على التغير، خزلتنا أنفسنا في لمح البصر.

إن نباحها لا يعرف الانقطاع، والباحة الخلفية مكتظة بالكثير منها، وأشكالها غريبة تجمع بين صفات الوحش ونظرات البريء، فيشعر المرء بالحيرة ويعجز عن التعرف على ماهيتها أو التطرق إلى حقيقتها.

بعد تفكير عميق وحوارات مطولة مع العائلة، سافرت إلى روما بهدف الدراسة، كانت كلية الإعلام وجهتي، انضممت إلى دفعة غريبة اكتظت بالكثير من الطلاب التعساء والطالبات المتشائمات. كانت السوداوية تخيم على الأجواء وكانت الدراسة غريبة وعجيبة.

أخذت من غرفة صغيرة بأحد المنازل الكبيرة موطنا لي، أعددت خطة محكمة فيما يخص الإنفاق، وكان هدفي الرئيسي التفوق والحصول علي أعلي الدرجات.

نعم، ذلك السباق المعتاد الذي نجبر أنفسنا على الدخول فيه، رغم علمنا بأن الأمر لا يستحق كل هذا العناء وأن الهروب من الفناء وهم كبير والإصرار على الإنجاز الكامل حلم غير مكتمل بالنسبة إلى الناس أجمعين.

كانت فتاة بغرفة مجاورة تلاعبني باستمرار، وانتهي بنا المطاف إلى ما لم يكن في الحسبان، عندما خرج الوحش الكامن بداخلي دون سابق إنذار. وبعد لحظات بسيطة من الندم، مر الأمر كما يمر القطار، لكن التكرار قد سيطر على اللحظات، وصار قاطنا الغرفتين من العشاق.

كانت فتاة سمراء جميلة من دارسات النفسيات، وكانت تتحدث عن فرويد ورفاقه دون كلل أو ملل، وقد اهتمت بتحليل كل ما يتحرك أمامها وكل ما يحدث حولها وكل من يتحدث إليها.

وقد وصل الأمر إلى علاقتنا الغريبة التي خضعت إلى تحليل عميق من قبل الفتاة محبة التحليل.

كانت تتحدث بلا توقف، كما هو حال كل الفتيات، وكأن طاقتهن الداخلية لا تعرف طريقا للخروج سوي عبر الكلمات. وقد لاحظت حبها الشديد لكل ما هو جديد، وكانت قادرة على إقناعي بخوض الكثير من المغامرات البعيدة عن النمط المعتاد.

لم تعد الدرجات موضع الأنظار، وصب الاهتمام على كل ما تسعد معه الفتاة وكل ما يحرك دواخلي ويشعل حماستي. سيطر الجموح على حياتنا وكانت الأزهار تقطف باستمرار. لكن الدراسة لم تلق في الجحيم، بل أخذت نصيبا صغيرا بالنسبة إلى ما كان في الحسبان وما خطط له العقل قبل أن يحدث التغيير ويحل التجديد.

كانت الفتاة منعشة بالنسبة إلى وكنت منعشا بالنسبة إليها، وكنا نمضي الليالي في التفلسف والتنقل بين الكثير من الألغاز. لكن الظلام كان قادرا على التسلل إلى الأجواء بين الحين والآخر بطبيعة الحال، ومع سوداوية الدراسة، شقت له بعض الأنفاق التي سمحت بالتدفق والسريان.

ورغم ولعي بها، إلا أن الشغف قد قل مع مرور الوقت، وحينها أصبح الاعتياد سيد الموقف بطبيعة الحال، فعدت من جديد إلى الاهتمام بكل ما يفيد وأصبحت الدراسة محل اهتمام جنبا إلى جنب مع الاهتمام بكل ما يخص الفتاة، لأن الاهتمام يعد محور العلاقات كما تقول كل الفتيات.

كان من الصعب بالنسبة إلينا، نحن الطلاب، أن نترجم ما ندرسه إلى واقع ملموس، وكان من غير المتاح أن نوفق بين ما يدرس وما يتعلق بسوق العمل، لكنها طبيعة التعليم التي لا تمنح الجميع سوي بعض الفتات.

فالسياق الذي يبني عليه التعليم نظري في أغلب الأحيان، وسوق العمل يتطلب الكثير من المجهودات التي لا تتصل بكل ما بذل أثناء الدراسة بالكليات. وهو ما يجعل الخريجين في حالة من الدهشة والذهول بطبيعة الحال.

كانت فتاتي تشاركني الكثير من اللحظات ذات السياق التعليمي المعتاد، وكنا ندرس سويا الكثير من النظريات التي تخص الإعلام وعلم النفس، فكنت أمنحها بعضا مما أدرس، وكانت تمنحني بعضا مما تدرس، فتشكلت لدينا قاعدة كبيرة من المعلومات في العديد من المجالات.

أخبرتني عن الأنيما والأنيموس، حدثتني عن التأثيرات النفسية المهيمنة على مدمني المخدرات، ومنحتني الكثير من المعلومات التي تتعلق بمحاولات الهروب التي يقوم بها العديد من البشر. وقد حدثتها عن الكثير من الأمور التي تخص الإعلام، فوضحت لها العديد من النظريات، حدثتها عن روبرت مردوخ، وطرحت أمامها عددا من القضايا الشائكة التي تمس قنوات التلفاز وسياسة العمل المعروفة في المؤسسات.

-3-

رغم أنوثتها المفرطة، كانت الفتاة حادة المزاج عاجزة عن التخلص مما تبعثه هرموناتها في نفسها من اضطرابات غريبة يعجز المرء عن إحصائها أو التعرف على مسبباتها. ورغم ذلك كنت قادرا على أن أشم أريجها الذي كان يصدر عنها بتلقائية حينما كان يشملها الهدوء والاستقرار.

لقد ساعدتنا جنسيتنا الموحدة ودعمنا موطننا الواحد في الوصول إلى التفاهم والتناغم، ورغم عقليتينا المتحررتين إلا أننا كنا نتساءل في الكثير من الأوقات عن حقيقة أفعالنا وماهية علاقتنا التي لم تكن تحكمها أي ضوابط.

كانت ذات ثقافة عميقة تمتد جذورها إلى علوم عديدة ومعارف كثيرة، وكنت أحس في بعض الأوقات أن ثقافتها العالية قد تحول بيننا وبين المواصلة. لكن المناوشات المضحكة والنقاشات الغريبة قد منحتنا الكثير من اللحظات التي مكنتنا من إدراك ما يجب إدراكه والوصول إلى ما يجب الوصول إليه.

كنا نتسامر حول الكثير من الأمور التي تخص حياتينا، وكنا نتحدث باستمرار عن عائلتينا اللتين تركناهما في مصر دون قدرة على التواصل الحسي أو الفعلي معهما. فرغم كون الاتصال الافتراضي ممكنا، إلا أن التعامل وجها إلى وجه ذو تأثير أكبر وواقعية أعمق.

كانت الكثير من اللحظات التي جمعتني بأسرتي تلاعبني بين الحين والآخر، وكانت العديد من المواقف التي شملتنا تتدفق إلى ذهني لتشعرني بنقص شديد وإحساس غريب.

ومضات من الماضي تسيطر على عقلي فتأخذني إلى عوالم غريبة وأمور عجيبة، أفكار سريعة تتسابق كي تنال مني وتنهدات حادة تمزق قلبي، موجات من الغضب تزورني وصراعات مغلفة بابتسامات متقطعة ترافقني فتتلاعب بذهني وتأخذني إلى ما لم يكن في الحسبان.

كانت فتاتي، ليلي، ضحية لصراعات شبيهة بصراعاتي، وكنت أقف بجانبها وأساعدها على التخلص من تأثيرات عقلها الباطن المفعمة بالسلبية والنزاعات غير المبررة. وكانت الكتب والأفلام والروايات بمثابة المخلص لنا في الكثير من الأوقات، فكنا نلجأ إليها حينما كانت الألسنة تعجز عن إيجاد حلول قطعية لأفكارنا المفعمة بالتشاؤم والسلبية. وفي الوقت عينه، كانت البهجة تتسلل إلى بيئتنا فتقطع موجات الغضب والنفور، بعد أن نكون قد حاولنا أن نفتح لها الأبواب معتمدين على الخروج للترفيه في بعض المتنزهات التي كانت تحوط بنايتنا ذات النمط غير المعتاد والتصميم الغريب الجامع بين كل ما يخيف وكل ما يسبب النفور.

كثيرا ما راودتنا الشكول حيال دراستنا، فكنت أشعر بعدم جدواها وكانت تشعر هي الأخرى بأن الصورة الأفضل للتعلم تتمثل في التثقف لا في الإجبار المعتمد في الجامعات. فكانت تستمتع بالقراءة وكانت تشتري الكتب الواحد تلو الآخر من أجل التمتع بمحتواها والتعرف على مكنوناتها.

في يوم من الأيام، جلسنا سويا لنقرأ كتابا لميشيل فوكو، كان عنوانه "حكم الذات وحكم الآخرين"، وكان يضم دروسا ألقاها الرجل في عام 1983 بالكوليج دو فرانس معتمدا على مفهوم الصراحة أو الباريسيا.

قالت لي: "يا سامر، حدثني عما فهمته بعد أن قرأنا سويا هذا الكتاب".

فأخبرتها بأنني لم أقرأ سوي بعض العبارات ذات التفلسف الغريب والتي في أغلب الأحيان لا تقدم شيئا يفيد. فنظرت إلى متعجبة من كلماتي وأخبرتني بأن الكتاب قد ضم الكثير من الرسائل الأفلاطونية البارعة، وتطرق إلى مسرحية إيون الخالدة، ورصد بعض عبارات فلوطرخس المميزة.

ضحكت بشدة بعد أن سمعت كلمة "فلوطرخس"، تأملت الكتاب عن كثب، أخبرتها بأنه لم يعجبني وسرعان ما أرشدتها إلى كتاب فوكو الآخر "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي"، فصفقت لي واصفة إياي بالمثقف، فأخبرتها بأنها الأفضل، فمنحتني قبلة مميزة، فلاعبتها ولاعبتني، وأخمدنا نباح الكلاب اللعينة لدقائق معدودة كنا في حاجة إليها. لكنها في الحقيقة لم تصمت، لم تصمت قط، فقد كان نباحها مستمرا دون سكون، وكانت الأوهام تلاعبنا وتسخر منا.

-4-

الكثير من الكلاب، كلاب ضالة لا تجد من يرشدها، كلها مجتمعة من أجل تعكير صفو مزاجي، أتوجه إلى النافذة المطلة على الشارع، أصرخ فيها محاولا ردعها والتخلص من تأثيراتها. تصمت لوهلة، لكنها سرعان ما تنبح من جديد بمجرد أن أتوجه إلى الداخل، تنبح ويتعالى نباحها، تنبح وتجبرني على الهروب والبحث عن كل مهدئ لعين ذي تأثير مؤقت غير مفيد علي المدي البعيد.

إن الماضي يلاحقني كما يلاحق الوحش ضحيته المفزوعة، فلم تكن حياتي مسالمة كما تظنون، لم تكن سوي صراع بيني وبين عائلتي، بيني وبين أصدقائي، بيني وبيني كل ما يحوطني ويشملني. ورغم ذلك لم يقتل الصراع حبي تجاه عائلتي، ولم يذبح عنادهم عواطفي الجياشة تجاههم.

تراكمت مصادر الكبت في نفسي فأحدثت خللا كنت أعجز في بعض الأحيان عن التعامل أثناء وجوده، كنت أصاب ببعض حالات الإغماء بين الحين والآخر، وكنت هشا ضعيفا عاجزا عن التفاعل مع ما يدور حولي.

لقد تعلمت بعد ذلك أنه من الأفضل للإنسان أن يعيش كوحش بدلا من أن يكون طيبا فيموت من جراء طيبته الزائدة عن اللزوم وتختطف حقوقه كنتيجة لصمته المكتوم.

فليس من الضروري أن يكون النباح بداخلك فحسب بل من الممكن أن يحاط المرء بالكثير من الكلاب على المستوي

الظاهري الملموس، وحينها تكون المصالح مهيمنة وتكون الصراعات مرئية. ورغم ذلك قد يكون المرء منهم، قد يكون ممن يسعون نحو المصالح ويتصارعون من أجل الأنانية البعيدة كل البعد عن الإنسانية والإيثار.

عليك أن تكون وحشا كي تتمكن من التعامل مع الوحوش، فالحل الوحيد للتعامل مع الشراسة يكمن في التسلح بشراسة مشابهة، والطريق الأفضل للنجاة يتمثل في فهم الشرور حتى لو لم يكن من الضروري أن تترجمها إلى واقع ملموس أو فعل محسوس.

إن البشر أجمعين يهاجمون بالنباح، النباح يلاحقهم والماضي يلاعبهم، المواقف السيئة تتسلل إلى أذهانهم والمآسي تحاصرهم. إنه وهم كبير، وهم كبير يسيطر على المرء حينما يعتقد أنه من الممكن أن يتخلص من تأثيرات الماضي، فالماضي يحاصرنا وينصب لنا الكثير من الكمائن، ينصبها من أجل أن يأخذنا إلى الهاوية ويلاحقنا من أجل أن يعكر صفو مزاجنا.

لقد فقدت صديقي العزيز في صغري، فقدته بعد أن لقي حتفه إثر حادثة طريق، تلاشى وغاب عن الوجود وتركني مقيدا بقيود اللحظات التي جمعتنا، تركني في مواجهة شرسة مع الأشباح والخيالات والذكريات.

كانت علاقتي به قوية، وكان المفضل بالنسبة إلي، كان بمثابة الأخ الذي لم تلده الأم والصاحب الذي لا يعوض، لكن القدر قد حال بيني وبينه والموت نال منه فأخذه إلى العالم الآخر في لمح البصر.

لم يكن لدي الكثير من الأصدقاء، لم أكن محبا للاجتماعية، كنت أتفاعل مع عدد محدود من الناس، وكنت منسجما مع هذه الحالة بوضوح، رغم إصرار الكثيرين على ضرورة أن أرتفع بنغمة الاجتماعية التي تخصني، تلك النغمة التي حاولت باستمرار أن أهبط بها وأجعلها ذات تأثير غير رنان.

فكلما زادت الاجتماعية، زاد التفاعل، وكلما زاد التفاعل، ارتفعت سيمفونية النباح، وأصبح انقطاعها أمرا صعب المنال. ورغم ذلك من الضروري للمرء أن يتفاعل مع من حوله ومع ما يحوطه.

-5-

كانت نزواتي التي أوقعت نفسي فيها بينما كنت بمصر تهاجمني بين الحين والآخر، وكنت أبررها محدثا نفسي بأنني قد أجبرت عليها رغم علمي بأنني قد خيرت في أمرها. لكن الغريب في الأمر هو أن الرزيلة لم تفارق دربي، فها هي ترقد في عقر داري نائمة فوق سريري.

والأكثر غرابة أنها قد لحقت بي قادمة من موطني، ورغم ذلك من الممكن أن أجبر نفسي على التخلص منها في وقت ما. لكنني عاجز عن التخلص منها لأنني أحب من تشاركني فيها، أحبها بكل ما تحمله الكلمة من معني، ولهذا من الأفضل أن أفكر في الزواج منها لعلنا نتخلص من الشر المهيمن علينا، الشر الذي سعينا إليه بأقدامنا.

لكن الزواج يمثل المسئولية، والمسئولية حمل كبير بالنسبة إلي، ورغم ذلك لابد من تحمل العبء ومن الضروري أن يتخلص المرء من أهوائه لعله يفلح في حياته ويرضي عنه ربه.

إن الإنسان يتحدث عن التوبة عندما تخور قواه ويصبح عاجزا، يتحمل عبء الرزيلة من أجل تفريغ طاقاته الدفينة، يتحمل صراعات الضمير من أجل أفعال لا تفيد على المدي البعيد، ويجبر على التوبة عندما يصبح عاجزا عن مواصلة أفعاله المصبوغة بصبغة الشر والغرور.

تظهر للإنسان ماهية شروره حينما تخذله قواه وطاقاته في متابعة ما كان يخفيه عن ضميره ومواصلة ما كان يبذل جهدا من أجل تجاهله والتغافل عن تبعاته.

جاءتني ليلي مرتدية قميصا لونه أبيض ذا نقوش حمراء عديدة، وكانت الابتسامة مهيمنة على وجهها بصورة تنم عن البهجة والتفاؤل. طبعت على خدي قبلة من طراز رفيع وتبعتها بحضن دافئ بث الحماس في كياني فأخذني في جولة من جولات الاطمئنان والهدوء.

جلست إلى جانبي تحدثني عن الدراسة، تابعت كلماتها متحدثة عن عملها الذي كانت تقوم به إلى جانب دراستها، فقد كانت تعمل بأحد المطاعم الكبيرة، ولم يكن عملي مختلفا عنها في حقيقة الأمر، فقد كنت أقدم الطعام إلى الزبائن في أحد الفنادق المعروفة.

ناولتني سيجارة من علبتها التي أوشكت على أن تصبح خاوية، قفزت إلى داخلها وجعلتها مأهولة بكلابي التي لا حصر لها، أخذت أرشدها إلى الكثير من الأمور والأشياء، وجهتها إلى الباب، إلى التلفاز، إلى المنضدة التي تعلوها الكتب، إلى الشباك، إلى الخلاء، لكنها رغم ذلك لم تبرح عقلي، ولم تكتف بذلك بل استقرت في أعماقه.

نظرت إلى فتاتي وهي في حالة من الذهول. أخبرتني بأنها تشعر ببركاني الفكري وإحساسي بعدم جدواي، ووضحت لي أن الكثير من الأفكار تتجول عبر مسارات ذهني لتشملني بالتشتت والفقدان.

سألتني عن أفكاري التي تراودني وتعجبت من حنيني إلي وطني موضحة لي أن الإنسان عليه أن يتأقلم مع البيئة الجديدة وأن يتكيف مع المتغيرات لعله يمضي إلى الأمام مكللا بأكاليل الظفر والانتصار.

أخبرتها بأنه لم يقدر لي أن أفهم شيئا عن حكمة الحياة، ولم تسمح لي التجربة بأن أفهم ما يجب فهمه أو أن أتطرق إلى ما يجب التطرق إليه. لكنها سرعان ما ردت على كلماتي مخبرة إياي بأنه من الطبيعي لكل إنسان أن يشعر بأنه يمثل الفشل التام وأنه من المألوف أن يحس بكونه قادرا على تقديم نتائج أفضل مما صدرت عنه أو نجمت عن أفعاله ومجهوداته.

حدثتني عن الأزمة الوجودية وأخبرتني بأنه من المبكر أن تراودني مثل هذه المشاعر والأحاسيس، فالإنسان غالبا ما يتعرض إلى مثل هذه الأفكار حينما يهرم وتخور قواه، وحينها يتساءل عن معني الحياة ويتعجب مما آلت إليه حالته ووصلت إليه خيالاته.

انتهي الحديث ملفوفا بحضن دافئ تمثل في التحام جسدين مفعمين بالحيوية وتطور لأحوطها بذراعين منهكتين، متخذا منها ملجأ وملاذا. وقد احتضنتها كما يحتضن الأب طفلته الهشة، وتحول كل شيء آخر إلى عبث في لمح البصر، بعد أن أخذت أحرك جسدي بخفة، محاولا التكيف مع جسدها الصغير.

أتذكر المرة الأولي التي تعرفت فيها إلى فتاة، ولا يمكنني أن أنسي هجومي الأحمق عليها كما يهجم الوحش علي الضحية، فقد كنت جامعا بين سذاجة الشاب الخام من جهة والإحساس

بالذنب وتأنيب الضمير من جهة أخري. ورغم غياب السذاجة عني في وقتي هذا، بعد أن أصبحت ذا خبرة، ها أنا أشعر بالعار، وها هو ضميري يشعرني بدناءتي.

لقد مرت الأيام في سرعة تامة، تزوجت من الفتاة بعد قرار حاسم، أرحت ضميري الهائج، وعزفت عن كل ما يغضب الإله. لطالما تساءلت عن حقيقة غضب الإله، فقد رأيت أن الغضب في هذه الحالة بمثابة التعبير المجازي، لأن الله أكبر من كل شيء، ولا يمكن أن يتأثر بكائن صغير مثلي بطبيعة الحال. وقد رأيت أن الأمر يتمثل في درجات نحصدها ورحمة ننتظرها، وهو ما يمثل الفكر الجمعي دون أدني شك.

-6-

في يوم إجازة، بكرنا في الذهاب إلى مقهى مميز، وقد كانت فوق المنضدة رواية لماريو بارجاس يوسا أحضرتها ليلي معها، وكان كوبا القهوة المثلجة على جانبيها ليمنحا المشهد العام جاذبية ورونقا وإشراقا.

كانت الرواية بعنوان "حفلة التيس"، وكانت تتحدث عن مرحلة تاريخية قاتمة في حياة جمهورية الدومينيكان، حيث قدمت قصة تروخييو الذي نزل بشعبه إلى الوحل وبث الرعب في قلوبهم وعقولهم.

أخبرتني الجميلة عن إعجابها بروايته "بانتاليون والزائرات"، ووضحت لي أنها كانت تتحدث عن اعتداءات الجنود في مناطق الأدغال النائية على نساء الفلاحين وبناتهم، مما أدي إلى تأسيس خدمة تتكفل بتوفير المتعة للجنود، حيث قامت القيادة العسكرية بهذه المهمة علي أكمل وجه، وكان موطن الأحداث البيرو.

لم أكن مثقفا بالقدر الذي تمتعت به ليلي، ورغم ذلك كنت قادرا على تقديم الكثير من المعلومات القيمة إليها، وكنت بارعا في إقحام الكثير من الأفكار الجذابة والمدهشة في نطاق نقاشاتنا.

حدثتها عن الأدب اللاتيني، وأخبرتها بأنني لا أشعر بشيء مميز حينما أتطرق إليه أو أحاول التعرف على ما يكمن بين طيات صفحاته. وقد أخبرتها عن إعجابي بأدب أومبرتو إكو، ذلك

الروائي الإيطالي الذي قدم الكثير من الأعمال المميزة، والتي كان على رأسها "اسم الوردة"، رغم تصميم البعض على كون "مقبرة براغ" الأكثر براعة وحنكة.

حدثتني بكون إكو من المميزين، لكنها خالفتني الرأي فيما يخص الأدب اللاتيني، حيث أخبرتني بحقيقة أنه يعج بالكثير من الأعمال المميزة والأفكار المبدعة واللمسات الفنية الاستثنائية التي لا مثيل لها.

لقد قضينا وقتا طويلا في المقهى دون الخروج من دائرة الأدب والفن والفلسفة، وحينما انتقلنا إلى التحدث عن أمورنا الشخصية وحياتنا المفعمة بالضجيج، كنا قد فقدنا طاقتينا ولم نعد قادرين على المواصلة، فعدنا إلى المنزل ونعمنا بفترة مميزة من النوم والدفء والاستقرار.

استيقظت من نومي بعد أن تسلل النباح إلى أذني، نظرت إلى الكلاب التي تؤرقني، حاولت إخمادها والتخلص من شرورها، لكنها صممت على نباحها ولم تهتم بما أعرضه عليها.

لقد قدمت إليها بعض الطعام، حاولت أن أمنحها بعضا مما أملك، ورغم ذلك لم تظهر إشارات الوفاء ولم تقدم أي امتنان، لكنها واصلت سيمفونيتها الغريبة، سيمفونيتها التي لا يرافقها سوي الضجيج والجلبة.

انبلج الصبح محملا برقص النسائم الناعمة ووجدت فتاتي بجانبي كحمامة أرهقها تحليق لا يدرك انقطاعا، وقد اتجهت إلى المطبخ وعدت بكوبين من القهوة أعددتهما بحيوية حوت وحشا بعد اصطياده فريسته والتهامه إياها. استيقظت من نومها وأزاحت اللحاف السميك عن جسدها، وبدت كقمر متوهج انقشعت عنه غيوم كئيبة تحوي شجونا عديدة.

كانت ليلي متأرجحة المزاج بصورة غريبة، وقد استيقظت من نومها مفعمة بالبهجة، لكنها سرعان ما تحولت إلى امرأة كئيبة تلاعبها أحزانها وتحوطها همومها.

حدثتني عن الكثير من الأمور التي تخصها بمجرد استيقاظها، وكأن الأفكار كانت تخزن في عقلها أثناء النوم لتفرغ بمجرد الاستيقاظ. وقد بدت سادرة في غيها، فلم ترحب بالقهوة ولم تشكرني على إعدادي لها.

لم تواصل كلماتها، أوقفتها بغتة، أوقفتها بعد أن أجبرت عقلها على التوقف، بعد أن أخبرت نفسها بأن الأفكار السيئة مؤذية وأن الأمور التي لا حل لها من الضروري التخلص منها، التخلص منها اعتمادا على التجاهل، التجاهل والتغافل، نعم، التجاهل والتغافل.

يعمل العقل في الكثير من الأحيان بصورة أفضل عندما نكرر له ما يجب عليه فعله، فعلينا أن نخبره أكثر من مرة بأن يتجاهل ما يضايقنا، وهو الحال نفسه عندما نتحدث عن الصبر

أو التأني أو المثابرة. علينا أن نقف أمام المرآة ونكرر ما نأمره به، نكرره معتمدين على الكلمة المناسبة والنص اللائق.

ها هي ليلي تخرج من حلقاتها الفكرية المفرغة، ها هي تحضر لنا رواية جديدة لنناقشها، لكننا لم نقرأها من قبل، لم نتطرق إليها بأي شكل من الأشكال، فكيف يمكننا أن نتحدث عنها؟ وهل من الممكن حقا أن نحلل ما لا نعرف عنه شيئا وما لم نقفز إلى بحره قط؟

لقد أخبرتني بأن الرواية مكررة والقصة معادة، فالحكاية البشرية واحدة، لكن ما يختلف حقا يكمن في طريقة عرضها وعملية التطرق إليها، وضحت لي بأنه من الممكن التحدث عن أي رواية والتطرق إلى أي كتاب بمجرد أن نقرأ الملخص، نعم ذلك الملخص الذي لا يتجاوز بضعة أسطر، علينا قراءته، علينا قراءته لا أكثر ولا أقل.

لطالما تعجبت من حالة التخبط التي تشمل كلماتنا، وها هي تتحقق أمامي كلما حاولت أن أنساها، فقد أزاحت ليلي الرواية بعيدا وشرعت في التحدث عن نفسها من جديد.

حدثتني عن صراعاتها مع عائلتها، أخبرتني بأنها لم تكن الفتاة المحببة في المدرسة، ووضحت لي أنها كانت تلجأ إلى العزلة في الكثير من الأوقات، لتقيم حياتها من جديد ولتحلل علاقاتها مع من حولها.

أخبرتني بأنها قد فقدت صديقة عزيزة لها في صغرها، فقدتها بينما كانت تحدثها عندما اصطدمت بها سيارة هشمتها وحولتها إلى رماد.

وضحت لي أن الإنسان يدرك قيمة الأفراد مع الوقت، يدركها حينما يتلاشون ويتبخرون في عنان السماء، فالعقول الواسعة تدرك جيدا أن القيمة تكمن في الأفراد لا في الأشياء، وأن الأشياء تعوض لكن الأفراد لا يعوضون، فغيابهم مميت يقتل الأرواح ويشتتها، وإذا لم ينل منها بشكل تام، بث الفزع والتشتت فيها وجعلها هائمة وعاجزة عن إيجاد الأمان. لكن الحياة في الكثير من الأحيان، تعلمنا درسا عظيما، تعلمنا أن التعلق لا يكون تعلقا بأفراد أو أشياء، لكنه من الضروري أن يكون تعلقا بالإله، فالخير كله عنده، وكذلك الملجأ والملاذ بطبيعة الحال.

أخبرتني عن أدق تفاصيل حياتها، فتطرقت إلى الكثير من الأمور التي سيطرت عليها في صغرها، تحدثت عن كل ما يسري في أنهار النفس ومسارات العقل وأزقة القلب، وكنت جالسا إلى جانبها رابتا على كتفها ومحاولا تهدئتها والتقليل من وطأة صراعاتها القادرة على الإطاحة بسكينتها وطمأنينتها.

كان رحيل أمها عنها بعد صراع شرس مع السرطان بمثابة الصدمة الكبرى التي لحقت بحياتها فأحدثت خللا كبيرا في السيناريو البهي الذي لطالما تخيله عقلها ورسمه فؤادها. كانت تتحدث عنها باستمرار ، كانت تتحدث عنها بينما كانت أطياف من الذكريات الجامعة بين البهجة والأحزان تنساب من ذاكرتها في سرعة واضحة كاشفة عن مدي تبجح العقل وإصراره على بث الاضطراب في الكيان والفقدان في عقول من يحنون إلى النيام.

ها هي دموعها تتساقط بلا توقف، تتساقط طالبة مني أن أسرع محاولا التخلص من تأثيراتها على فتاتي وأن أخلصها من قيود

الماضي وصراعات الحاضر. لكنني مثلها، نفسي مضطربة وصراعاتي لا تحصي، ورغم ذلك من الضروري أن ينحي المرء صراعاته جانبا حينما تفور صراعات الحبيبة محدثة بداخلها خللا كبيرا أو شرخا عظيما.

-8-

اصطحبت ليلي في أحد شوارع روما البهية، أخذنا نتجول بلا توقف، وكانت إحساسات الاغتراب تلاعبنا وتشابكات أيدينا تدعمنا.

ظهرت لنا صديقتها مانويلا بصورة فجائية، صديقتها التي تعرفت عليها منذ أن التحقت بالجامعة، رحبنا بها ورحبت بنا، صممنا على أن تنضم إلينا وتشاركنا جولتنا، فوافقت دون تردد وتسللت الكلمات بلا هوادة لتشعل الأجواء وتحقق الانسجام.

كانت الإيطالية تتحدث بكثرة، وكان من الضروري الإنصات إليها وتأمل تعبيرات وجهها. في الحقيقة، كان الأمر ضروريا بالنسبة إلى وحدي، لأن جمالها الفتان كان يجذبني ووجهها المنمق كان يغازلني. ورغم ذلك، كانت ليلي قابعة في ذهني وكانت بهجتي نابعة من وجودي قربها، نابعة من وجودي قرب ليلي، ليلي فحسب.

استمرت الجولة لساعات، مرت الساعات مصحوبة بدفء شديد وانسجام كبير نجم عن تبادل الكلمات في ود وابتهاج، وقد عدنا إلى المنزل في نهاية المطاف وكانت معنا الفتاة.

أخبرتنا مانويلا عن رغبتها في المكوث معنا لعدة أيام، حتى تتمكن من إيجاد غرفة جديدة تسكنها بعد أن أجبرت على مغادرة غرفتها القديمة بسبب عدم قدرتها علي دفع الإيجار، وقد رحبت غرفة ليلي بها بعد أن نقلنا بعض الأشياء إلى غرفتي الواسعة، والتي لجأنا إليها في أغلب الأوقات منذ الزواج. ورغم

ذلك، فقد قررت أن أنتقل مع فتاتي إلى شقة صغيرة يسهل الإنفاق عليها في أقرب فرصة ممكنة، وهو ما يحتاجه الزواج بطبيعة الحال.

وبعد تفكير سريع، وجدنا أنه من الأفضل أن نعرض على مانويلا أن تقطن الغرفة إلى الأبد، على أن تدفع إيجارها البسيط بدلا من البحث عن غرفة أخري وما يصاحبه من مشقة وعناء. وقد وافقت الفتاة بعد عناد، وتمكنت غرفتي من احتضان أشيائي وأشياء ليلي بسهولة وبهاء.

جاءنا الليل وقفزنا إلي بحر النوم، وعند الفجر، استيقظت متجها إلى الحمام، وإذ بغتة تقف أمامي مانويلا بزرقة عينيها بعد أن غادرت غرفتها بثوبها الفتان، فتسلل الاضطراب إلي كياني وتحرك بداخلي ما لم يكن في الحسبان.

كان الشيطان يعد خطته، وكانت الأيام تعد الاختبار، وقد تعجبت من حالي وتساءلت عن حقيقة إدراكي لأفعالي، وكان عقلي يخبرني بأن معظم البشر يقدمون على أفعالهم دون إدراك لها ودون أي محاولة تهدف إلى صدها إذا كانت في طريق الشر والهلاك. وقد رأيت أنني قد عدت إلى طريق الرشاد وأنه من الخطأ أن أنتهج نهج الفساد بعد أن اهتديت إلى الصواب.

حدثتني أنها قد خرجت لتشرب بعض الماء، وسألتني عن ليلي بعد أن رسم وجهها ابتسامة ذات تأثير خلاب، فأخبرتها بأن النوم قد نال منها وأنها قد قفزت إلي بحر النيام.

-9-

الأمطار تهطل بلا توقف، والأجواء مفعمة بالتوتر والاضطراب، والظلام يخيم على الوجود ورغبة الاستيقاظ في ضوء النهار تلاعبنا بإلحاح، لكننا نعلم أن الليل يولج في النهار وأن النهار يولج في الليل، وهو ما يؤكد ضرورة الاستمتاع بكلتا الحالتين وتقبل كل شيء دون تبرم أو عناد.

جلسنا لنشاهد فيلما يدعي "ليزا والشيطان"، لم أشاهده من قبل ولم تشاهده ليلي قط، لكن مانويلا كانت علي علم بأحداثه، فانضمت إلينا لتتابعه من جديد وتخبرنا بالكثير عنه.

أخبرتنا أن الكثيرين يعتبرون الفيلم جوهرة التاج في أعمال المخرج الإيطالي ماريو بافا، وأن أحداثه تجري في مدينة طليطلة حيث تنفصل السائحة ليزا عن صديقتها كاثي وتتوه في شوارع المدينة الخلفية، وتصل بها الأحداث إلى ما لم يكن في الحسبان، حيث تجد نفسها وحيدة في فيلا خربة محاطة بالكثير من النباتات البرية المتشابكة، بعد أن تستيقظ من غيبوبة طويلة.

بعد الانتهاء من مشاهدة العمل، انتقلنا إلى فيلم آخر من بطولة مانويلا أركوري، تلك الإيطالية التي لطالما شعرت بصلة بينها وبين المصرية أروي جودة، من حيث الشكل بطبيعة الحال. ورغم ذلك لا يمكنني أن أنكر الاختلاف الجوهري بينهما فيما يخص الأسلوب والعرض والموهبة.

بعد الانتهاء من جولتنا السينمائية المطولة، جلسنا نتحدث عن الكثير من الأمور، وكانت أكواب النعناع المغلي قادرة على بث الدفء والطمأنينة في الأجواء، ورغم ذلك كانت لنظرات مانويلا الغريبة وحركاتها المريبة قدرة خاصة على ضخ الاضطراب والتوتر في كياني.

-10-

امرأة جميلة نائمة، لا تشعر بشيء، غارقة في أحلامها، فوقها روح شريرة تتأملها وتأخذ من كيان حيواني شكلا لها، والأمر بأكمله أشبه بالحلم المفعم بعناصر إيروتيكية وخيالية عجيبة، وهو ما أثار دهشتي وجعلني في حالة من الذهول.

نعم، إنها لوحة هنري فوسيلي، تلك اللوحة المعروفة باسم "الكابوس". لقد جلست مانويلا معنا تحدثنا عنها بلا توقف، وقد أخبرتنا بأن الروح الشريرة التي رسمها الفنان يطلق عليها اسم "إنكيوبس"، ويطلق عليها البعض اسم "الجاثوم".

نظرت إليها ليلي وأخبرتها عن رغبتها في التعرف على المزيد، وقد تابعت مانويلا التحدث وأخبرتنا بأن الأساطير القديمة تحكي لنا أن "إنكيوبس" يمثل النسخة الذكورية من الشيطان، وهو كائن يحب اصطياد النساء النائمات، حيث يرقد فوق أجسادهن ويرغب في ممارسة الحب معهن.

أخبرتها بحقيقة أن الأمر يمثل حالة مرضية نادرة، حيث تشعر المرأة بحالة من التأرجح بين الواقع والخيال، وينتابها إحساس غريب بأنها على وشك التعرض إلى مضاجعة غريبة من كائن خفي، وهو ما يحدث كنتيجة لاضطرابات النوم المتكررة. ورغم ذلك يري الكثيرون أن هذه الهلاوس تهاجم ضحايا الاغتصاب في أغلب الأحيان.

عبرت مانويلا عن إعجابها بكلماتي وتابعت حديثها موضحة لنا حقيقة أن الرسام الكلاسيكي نيكولاي أبراهام أبيلدجارد قد

رسم نسخته الخاصة من اللوحة، وأن عمله قد أضاف المزيد من التوتر والفزع إلى المشهد العام، فلم يعد الموقف معبرا عن حالة نفسية فحسب، بل أصبح قادرا على رصد حالة من الرعب الجسدي الخالص.

تسللت القشعريرة إلى جسد ليلي، فشعرت برغبة عارمة في الحصول على بعض الدفء والاحتواء، وهو ما دفعني إلى الاقتراب منها وضمها إلى صدري، وحينها طلبت مني مانويلا أن أقدم لها المثل معبرة عن غيرتها الشديدة الناجمة عن افتقارها إلى شريك يؤنسها ويشعرها بالطمأنينة، وهو ما بث الضحكات في الأرجاء وقلل من الفزع الذي حوطنا بعد أن تعرضنا إلى اللوحة الغريبة.

-11-

في الصباح الباكر، اتجه كل منا إلى العمل، وقد عدت إلى المنزل بعد مشقة وعناء، فوجدت مانويلا تجلس دون رداء، وقد تجاهلت ما شاهدت وغادرت الصالة قاصدا غرفتي.

شعرت بأن الشيطان كان يستخدمها ليلقي بي في الوحل من جديد، لكنني سرعان ما أخبرت نفسي بأنني مبالغ بطبعي، وأنه من الأفضل ألا أستبق الأحداِث حرصا على راحة البال. ورغم ذلك، على مدار التاريخ، انصاع الكثير من البشر إلي الإغراءات وسمحوا للشياطين أن تحضنهم كما يحضن الحبيب الخبيث حبيبته البلهاء. وهو ما بث القلق في كياني وأشعرني بضرورة الحذر والاعتناء بهيئتي النقية التي صرت عليها بعد عناء.

عادت ليلي إلي المنزل، وقد مرت الساعات في لمح البصر، ووجدنا أن الليل قد ضرب علينا دون سابق إنذار، فعمدنا إلى القراءة وكل ما يشغل البال، ورغم ذلك تسللت إلى عقلي الكثير من الوساوس والمخاوف. فقد تأملت حالي وتمنيت لو وجدت مهنة تتماشي مع دراستي وتشعرني بأنني قد حققت ما يسعدني ويمنحني القدرة على الإحساس بوجودي وترجمة ما درست إلى واقع ملموس وعمل محسوس.

وبعد الإحساس بالضياع، راودتني الكثير من الأفكار فيما يخص مانويلا، شعرت بأنها كانت ترمق حبنا بعين الحسد، غمرني شعور غريب بأنها تمثل الحقد وتجسد الكره، لكنني سرعان ما عدت إلي رشدي وأخبرت نفسي بأن الفتاة تحبنا وتتمني لنا كل الخير، فهي صديقتنا المقربة دون شك.

لقد تحول الأمر إلى ما يشبه الوساوس، هكذا هو الحال مع النساء، فمن السهل لهن أن يقفزن إلى عقلك دون سابق إنذار ، ومن الممكن لفتاة قد عرفتها للتو أن تلاعب عقلك باستمرار كما تلاعب الأحلام عقول الأنام بإلحاح.

نظرت إلي ليلي، فتنهدت، أخبرتني بأن الدنيا لا تسعها كلاما، وضحت لي حقيقة أن حياتها لا تروق لها وأن وجودها أصبح في حاجة إلى طفرة تنعشها وتبث الحماس في كيانها.

اقتربت منها ومنحتها حضنا مفعما بالدفء والحنان، وأخبرتها بضرورة السعي نحو راحة البال، راحة البال التي لا تتحقق سوي بالاعتماد على الرضا والتخلص من كل ما يشغل العقل من مخاوف وهموم وتفكير في مستقبل مجهول.

-12-

القمر في السماء ينظر إلينا، يسخر من حالنا ويتأمل تشتتنا، لكنه لم يعان من تشتت مماثل قط، لم يشعر بما نشعر به ولم تتسلل مشاعر التشتت والفقدان إلى كيانه، وهو ما يمنحه تفوقا من نوع خاص بطبيعة الحال.

بعينيها الجميلتين تتأملني، وبوجهها المشرق تقترب مني، فأقترب منها محاولا الحصول على شيء لا أفهمه، أقترب منها لعلني أشعر ببعض الدفء الذي أفتقده. فوجود ليلي معي يمنحني الطمأنينة والأمان، ووجودي معها يمنحها المثل بطبيعة الحال، ورغم ذلك لا مهرب من المخاوف والأوهام. فالأمر بأكمله لا يرتبط بوتيرة واحدة ولا يمكنه أن يسير على نهج ثابت، وهي طبيعة الحياة التي يفهمها كل الأنام.

لطالما تساءلت عن حقيقة حراكنا، وكثيرا ما حاولت أن أفهم تلك العقليات التي تتحرك باستمرار رغم علمها بحالة الخداع التي تعيشها، ورغم ذلك كنت في كل مرة أبحث عن المبررات، تلك المبررات التي تجعل من الحراك أمرا طبيعيا وتصنع من الاختيارات المحدودة التي تعرض علينا بيئة منطقية من الممكن فهمها والتعرف عليها، حتى لو كان الأمر على الصعيد الظاهري أو الخارجي.

حدثتني ليلي عن رغبتها في الخروج من أجل العشاء، وقد ذهبنا إلى مطعم صغير وتناولنا البيتزا بنهم غير معتاد، وقد كانت مفعمة بالكثير من الخضروات وكان الجرجير يزينها بحلاوة وبهاء.

وقد تناولنا بعد ذلك قطعة من التشيزكيك، قطعة تشاركناها مدعومة بكوبين من عصير فوار ذي لذة قادرة على إقحام شاربه في حالة من الذهول والحماس.

أتذكر صديقا كان يحدثني عن حبه الشديد للتشيزكيك، كان يكتب الأشعار عنها، وكانت السعادة تغمره كلما تناولها، لكن ما أثار دهشتي حيال ذلك، تمثل في تعجبي من قدرة الأشياء البسيطة على جلب السعادة وتأملي للبهجة الشديدة التي تهيمن على الإنسان حينما ينزل إلى متعه الأولية والغريزية، رغم التعقيدات التي كثيرا ما يحاول أن يضفيها على تجربته، ورغم كثرة حديثه عنها وافتخاره بقدرته على صنعها.

في إحدى المرات، أخذ يحدثني عن لذة التشيزكيك بلا توقف، كان يتحدث عنها كأنها حبيبته، وعندما حاولت إيقافه مخبرا إياه بأنه من الضروري ألا نتحدث بكثرة عن الأمور التافهة، أخبرني بأن التحدث في شأن العوالم المحتضرة قد يستغرق وقتا لا يعرف حدودا دون الوصول إلى نتيجة إيجابية، مما يجعل من التحدث عن أي شيء، مهما قل قدره، أمرا منطقيا، لأنه ليس من الضروري أن نصل إلى شيء واضح ومستقر، ولأن الأمر بأكمله يتعلق بتمرير الوقت، تمرير الوقت، لا أكثر ولا أقل.

كانت كلماته رنانة، تسللت إلى عقلي فأحدثت تغييرا جوهريا بداخله، منحتني إحساسا بالحرية، جعلتني أحس بوجودي بصورة مختلفة، صورة طغت عليها انبعاثات التحرر والتخلص من إحساسات الترقب، تلك الإحساسات التي تخص الانتظار والرغبة في جني الثمار.

حدثت ليلي عما يجول في ذهني، وضحت لها أنه من الضروري أن نعيش اللحظة وألا ننتظر شيئا محددا، فعلي المرء أن يخطط دون تفكير عميق، ليتقدم إلى الأمام متخلصا من المخاوف وعبء الأحلام. وقد أظهرت اتفاقا واضحا مع أفكاري وألصقت به ابتسامة رسمها فمها، وتشابكت الأيادي وعدنا إلى الديار.

-13-

حل الصباح مجددا، اتجهنا إلى الدراسة والعمل بعد أن تناولنا الفطور سويا، وبعد أن تبادلنا التحيات مع صديقتنا الغامضة مانويلا.

ها هو ينظر إلى متعجبا من حالي وتشتتي، يخبرني بأنني لست على ما يرام، يقترب مني، ويحثني على الاهتمام بدروسي. إنه البروفيسور رومانو، ذلك اللعين الذي لطالما تحدث عن رحلاته إلى أنحاء العالم متفاخرا بحماسته وفرط حركته. كان يحدثنا باستمرار عن إنجازاته التي لا تحصي، تلك الإنجازات التي ترتبط بإرضاءات داخلية يحاول كل إنسان أن يحققها، و لا شك في حقيقة كونه إنسانا بطبيعة الحال.

كان يحدثنا عن سفره إلى أميركا وكأنه قد سافر إلى الجنة، وكانت كلماته تزعجنا و لا تقدم جديدا إلينا. كان بارعا في تبديد الوقت وكان يتحدث بلا هوادة عن أمور لا تمت إلى موضوع المحاضرة بصلة، رغم إدراكه لأهمية الوقت بالنسبة إلينا، ورغم علمه بحقيقة احتياجنا إلى التفسير والتحليل.

كان في الخمسين من عمره، وكانت حبيبته تصغره بما يقرب من عشرين عاما، ورغم محاولاتها إقناعه بالزواج منها، إلا إنه لم يكن متقبلا للفكرة، وكان يري أنه من الأفضل للمرء أن يعيش حرا طليقا كنمر، لا تحد من حركته أي عوائق و لا تربطه أي قيود.

كانت حبيبته غريبة الأطوار رغم جمالها الخلاب، وكانت تزوره كثيرا في الجامعة لتؤنسه وتنصت إلى كلماته. وقد جلست معهما في إحدى المرات وتعرفت على العلاقة الغريبة التي جمعت البروفيسور بالفتاة الشقراء.

كانت علاقتهما مبنية على الاحترام، وكانت الفتاة تنصت إلى كلماته دون أن تقاطعه أو تجادله، وكان يحتضنها ويعطف عليها ويهتم بأمرها، وهو ما مثل القاعدة الرئيسية للعلاقة القائمة بينهما. ورغم ذلك، لا يمكنني أن أتطرق إلى الدواخل والخفايا، فربما يكون ما شاهدت قناعا زائفا، وربما تكون العلاقة قائمة على المنفعة المتبادلة الخالية من المشاعر، والتي تقوم على تمتعه بجسدها وتمتعها بماله.

لطالما رأيت أن العلاقة العاطفية ليست بالسهولة التي نتخيلها، وكثيرا ما تأملت محاولات الذكر إرضاء أنثاه بعد أن تظهر له ضيقها وتبرمها، وقد توصلت إلى حقيقة أن العلاقة بين الرجل والمرأة قائمة على المناوشات، تلك المناوشات التي تمثل الوقود الذي يمكن العلاقة من التقدم إلى الأمام، ورغم ذلك من الممكن لهذه المناوشات أن تؤدي إلى ما لا يكون في الحسبان، ومن الممكن أن تنتهي العلاقة في لحظة من الزمان دون سابق إنذار.

إن العلاقة بين البروفيسور وفتاته كانت قادرة على إحاطتي بالفضول والإثارة، وقد تحدثت إلي ليلي في أكثر من مرة عن علاقة الرجل بالشقراء، وكانت تخبرني باستمرار عن اعتقادها بزيف العلاقة وتنبؤها بفشلها.

وفي إحدى المرات، سألتها عن علاقتنا، فأخبرتني بأنها ذات هيئة رسمية قادرة على منحها الاستقرار، ورغم ذلك من الممكن أن تتدهور إذا فقدت عناصرها الأساسية، تلك العناصر التي تتمثل في الحب والتفاهم والمراعاة.

-14-

بعينيها الزرقاوين تتأملني، تقترب مني وتناولني كأسا من الماء، تحاول أن تبث الاضطراب في كياني لتمنح نفسها بعضا من الثقة حيال قدرتها على الإغراء، تدخل إلى غرفتها بمجرد ظهور ليلي علي الساحة، وتعود من جديد مخبرة إيانا برغبتها في أن نشاركها ليلتها السينمائية.

نشاهد فيلما يتحدث عن متلازمة ستوكهولم، يعرضها وسط أحداث صاخبة لا ينجم عنها سوي الاضطراب والتوتر، يغيب الاستمتاع عنا، فأقترح عليهما أن نشاهد فيلما آخر.

سرعان ما تعبر ليلي عن رغبتها في النوم، فأرافقها إلى الغرفة، وأعود من جديد لأشارك مانويلا الفيلم الذي اقترحته لتوي.

تقترب مني وتجلس عن يميني، نطفئ الأضواء ونستجلب الأجواء، تلك الأجواء السينمائية التي يحبها الجميع، لكن العقل صعب التطويع، وبمجرد اقترابي منها، تزداد الضربات وتتطور الاضطرابات.

ها هو يريدها، العقل اللعين، يريد قبلة، إنها قبلة ترغب في أن تطبع على فم الجميلة، لكنني سرعان ما أكبت ما يرغب في البزوغ، فأتراجع إلى الوراء وأغادر الغرفة بعد أن تسلل إلي كياني الهراء.

تتعجب مانويلا من حالي وتحاول اللحاق بي، فأحدثها عن رغبتي في النوم، وأوضح لها أن الوقت قد صار متأخرا للغاية وأنه من

الضروري أن نتجه إلى السرر، فتخبرني بأن كلماتي لا تمثل سوي الصواب، وتتجه إلى غرفتها بينما يشملها الاضطراب.

فوق السرير، أرقد وعن يساري ترقد جميلتي، جميلتي ليلي، لكن مانويلا تلاعب خيالي وتشعرني بأن هناك ما يفوتني، ولا يتوقف الأمر عند هذه النقطة فحسب، لكنه يمتد ليراودني إحساس غريب، إحساس بالتشتت والفقدان والخوف من تقلبات المسار.

مع الخيانة الزوجية، يتسلل الاضطراب إلى التجربة، تلوث السمعة، تشعر الشريكة بالبعد، يصرخ الضمير بين الحين والآخر، يشعر المرء بأنه مقصر، يراوده إحساس غريب بأن أفعاله لا تفيد، يحس بأن الأمر لم يكن في حاجة إلى كل هذا الهراء، ويخبره عقله في بعض الأحيان بأنه لا يوجد اختلاف بين النساء.

ورغم ذلك، يخبره نفس العقل بالنقيض في أحيان أخري عديدة، وقد يحدث نفسه بأنه من المنطقي أن يعرف الرجل العديد من النساء، رغم علمه بأن كلماته لا تقدم أي حلول بعد أن كشف عن المجهول.

أعتقد أن مشكلة الإنسان الكبرى تكمن في عدم قدرته على تحديد هدفه، إنه مشتت لا يعرف ما يفيده، ومع كل جديد يستقبله، يشعر بأن هناك ما يفوته.

-15-

بعد مرور عدة سنوات، تمكنا من الحصول على شقة صغيرة، انتقلنا إليها بعد أن ودعنا مانويلا، تلك الفتاة الجميلة التي كان من الممكن الوقوع بسهولة في شباكها.

جلست مع ليلي لنتحدث عن الكثير من الأمور، بدت كلماتي ممزوجة بأحاسيس الاضطراب والتشتت، فواريت توتري بالنظر إلى السقف، لكن الجميلة سرعان ما لاحظتني وأدركت حالتي، فاقتربت مني وأخبرتني بعلمها بشأن المهلوسات والمخدرات التي أحصل عليها بين الحين والآخر.

أصابني الفزع، تسللت الحمرة إلى وجهي، انتفضت من مكاني وسألتها عن كيفية معرفتها بشأنها، فأخبرتني بأنها ليست بالساذجة لتغفل عن مثل هذه الأمور وليست بالحمقاء لتعجز عن التمييز بين النفس السوية والنفس المضطربة.

أخبرتها بأنني لست بالمدمن، ووضحت لها أنني ألجأ إليها بين الحين والآخر، معتمدا على كمية بسيطة منها، بهدف المضي إلى الأمام واكتساب القدرة على مسايرة الحياة. فأخبرتني بأنها تتعجب من حالي ووضحت لي حقيقة أن الحياة تحتاج إلى اليقظة لا إلى الغفلة والتخدير، فوعدتها بعزوفي عنها في أقرب فرصة ممكنة، فابتسمت بأناقة وغادرت الغرفة بدماثة.

عادت من جديد وأخبرتني بأن مانويلا قد اتصلت بها بعد انقطاع، وأنها قد عرضت عليها أن ننضم إليها في رحلتها إلى الشاطئ،

فأخبرتها بموافقتي التامة وسرعان ما كشف وجهي عن ملامح الغبطة.

يومها، جلست أتساءل، أخبرتني نفسي بالكثير من الأمور، تسللت إلى عقلي هواجس مشتتة وأفكار عشوائية، فأصبحت أسيرا لحالة غريبة جمعت بين الرغبة في المواصلة والسعادة الملازمة لها من جهة، والرغبة في التوقف وكبح جماح النفس. نعم، إنها تلك الحالة المألوفة لدي البشر أجمعين، نعم، إنها حالة التأرجح بين إرادتين لا يمثلان سوي النقيض ولا يرصدان سوي التشتت والاختلاج والخفوق.

في الحقيقة، لقد تمكنا من الحصول على شقتنا الصغيرة بعد عمل مستمر وعناء كبير، لكن ما ساعدني حقا ووفر لي ما يلزمني من مال، تمثل في عملي الروائي الذي حقق نجاحا طيبا ومبيعات مرتفعة، ورافقته بعض الحلقات التلفزيونية التي ظهرت فيها لأتحدث عنه وأتغنى بما حققه من شهرة ومال.

كان يتحدث عن رجل فقد المعني، رجل لم يعد راغبا في مواصلة الحياة، فعزف عنها وأعرض عما تعرضه عليه من مال وجمال. فرغم وجود زوجته الجميلة إلى جانبه، ورغم نجاحاته المتعددة، إلا إنه لم يعد عابئا بما تعرضه عليه الحياة، فأصبح هائما تائها لا يرغب في التعرض إلى جديد و لا يسعي نحو أي طفرة بأي شكل من الأشكال.

نزح الماء، أودت بشاربه المنية بعد أن خاض المنايا وجابه الصعاب وحقق النجاحات، لكن ما حدث تمثل في حلول الملل، ذلك الملل الذي دمر التجربة فأحدث بها خللا أصبح من الصعب تحمله وصار من المستحيل المتابعة في ظل وجوده.

عندما يقرأ الإنسان عن الصراع البشري والأحاسيس الإنسانية، يشعر بالطمأنينة رغم شراسة الحقيقة، لأنه يحس بكون الإنسان واحدا و لأن المشاركة تضفي على تجربته الهدوء والأمان المؤقت، وهو ما يجعلنا نتساءل حيال كونه خبيثا من عدمه وحيال رغبته في رؤية السعادة على وجوه الآخرين رغم عدم سعادته.

لطالما أحب القراء متابعة الأعمال التي تعج بملامح التعبيرية، تلك التعبيرية التي ترصد صراع الإنسان، ترصد أحلامه وأوهامه، ترصد لياليه وأيامه، ترصد كل شيء وتعبر عن كل إحساس.

ورغم ذلك، ليس من الضروري أن يكون كاتب العمل المأساوي مأساويا بأي شكل من الأشكال، فقد يكون عبثيا ذا شخصية مرحة أو صامتا ذا شخصية مبهمة من الصعب التعرف على ملامحها أو التوقف عند نقاط محددة فيما يخص مكامنها.

وبصورة أخري، قد يكون كاتب العمل الكوميدي مأساويا جادا يعيش الحياة في ظل نظام ويحاول أن يتعامل مع المنطق دون عبث أو جنون، فليس كل ما يظهر لنا معبرا عن الحقيقة وليس كل ما تعرضه التجربة الظاهرية ممثلا للواقع، فالدنيا مفعمة بالخفايا، ولولا الخفايا ما كتب السيناريو الذي لولاه ما بثت الحياة في جسد الوجود.

ورغم ذلك، ورغم مأساوية العمل، إلا إنني لست بالمأساوي ولست بالمرح، وهو ما جعلني أتساءل كثيرا عن ماهيتي وحقيقة معرفتي بنفسي وتعرفي على ملامحها.

إن الإنسان عاجز عن التعرف إلى نفسه، يعيش هائما لا يهتدي إلا باللجوء إلى طريق الإله، ولا يهدأ إلا بالتجاهل واستجلاب أحوال التغافل داخل الإطار الطبيعي ودون دواخل ذات تأثير مؤقت.

-17-

شاطئ أوستيا ليدو، زجاجات فارغة كان يحتسيها بعض التائهين ملقاة فوق الرمال، أمواج متجددة قادرة على التخلص من كل شيء وإزاحة كل عائق ومحو كل تاريخ، ومانويلا أمامي برداء بحر مكون من قطعتين، أما ليلي، فها هي تجلس عن يميني بينما يهيمن عليها مزاج ذو مرح وانشراح.

لكنها حالة غريبة من المرح، حالة من السهل الخلط بينها وبين اليوفوريا، وهو ما يثير القلق والشكوك بطبيعة الحال.

تقترب مانويلا مني، تسحبني، تداعب الأمواج وتطالبني بالانضمام إليها لعلني أحصل على بعض المداعبات، لكن عقليتي المنحرفة تجعلني أنزل بسهولة إلى طبيعة الحيوان، ورغم ذلك ها أنا أضبط نفسي وأتعامل معها كصديق عزيز يحترم رفيقة زوجته ويدرك حقيقة المسار.

تركنا ليلي وحدها، ذهبنا إلى مكان قريب واشترينا بعض المأكولات، وتمكنا من تمريرها رغم منع الدخول بها من قبل السلطات. وعندما عدنا، عادت مانويلا إلى السباحة من جديد، وجلست إلى جانب ليلي التي رغم سعادتها الفائقة إلا إنها لم تكن راغبة في السباحة أو الاقتراب من الماء.

وقد حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد نال من مزاجها تبرم غريب وسيطر عليها عناد كبير، فأخبرتني عن ضيقها وسألتني عن حقيقة انضمامي لمانويلا وتبادل الضحك واللعب معها، دون احترام لها أو مراعاة لوجودها.

لقد أظهرت غيرة واضحة لم تصدر عنها من قبل، وعبرت عن سخط عميق نجم عن تصرفاتي غير اللائقة وعدم اهتمامي بها. فقد كان من الممكن أن أطالبها بالانضمام إلينا وكان من الأفضل ألا أنصاع إلى اقتراح مانويلا.

تحشرج صوتي، ضاقت أنفاسي، عجزت عن تبرير موقفي، شملتني حالة غريبة من الأحاسيس والمشاعر، حالة لا تمثل الرد الأفضل ولا تجسد المنطق والتعامل مع الواقع. لكن الجميلة سرعان ما ضحكت، ضحكت وعبرت عن محاولتها التلاعب بأعصابي ورغبتها في إظهار طبيعة الأنثى الغامضة التي يمثل التبرم أكبر ملامحها.

وقتها، تسللت إلى عقلي كلمات فرويد حيال طبيعة المرأة، تذكرت كل كلمة قالها حينما عبر عن تعجبه من نفسيتها. فقد قال: إن السؤال الجوهري الذي لم يجب عنه بعد والذي لم أتمكن من الإجابة عنه قط، رغم الفترة الطويلة التي قضيتها في البحث في الروح الأنثوي، هو: ما الذي تريده المرأة؟

ورغم ذلك، سرعان ما أزاح التغير المفاجئ العبء، فلم أعد مطالبا بتبرير موقفي وتخليصها من تبرمها، فقد عادت إلى المرح والمزاح دون عناء، واكتمل اليوم في سعادة وبهاء.

لقد انتهي اليوم، بعد أن أخبرتنا مانويلا بأن الإرهاق قد نال منها وأنها قد سبحت بما يكفي، وقد نظرت إلينا بوجهها الفاتن، وأخبرتنا بأنه من الأفضل أن نعود إلى الشاليه، على أن نأتي إلى الشاطئ مجددا في صباح الغد الباكر.

-18-

انتهت الرحلة في لمح البصر، عدنا إلى الأعمال والأشغال، عدنا إلى الواقع المرير المفعم بالتدابير، لكن الغريب في الأمر هو أن الفتاة لم تبرح عقلي ولم تغادر وجداني، وكأن انحناءاتها الجسدية المميزة قد رسخت في حجرات دماغي فأصبح من الصعب التخلص منها وصار من المستحيل إزالتها أو محوها.

عندما تحصل على جمجمة إنسان بعد أن تفصلها بعيدا عن باقي جسده، تشعر بالتعقيد، تنتابك قشعريرة عظيمة ويراودك فضول كبير حيال كل هذا التعقيد، لكن هذا التعقيد التشريحي الغريب لا يمثل شيئا هاما بالنسبة إلى تعقيدات النفس البشرية، فتعقيداتها لا ترتبط بمادة لكنها تعقيدات نجمت عما يرقد بداخل الجمجمة، وتكونت من جراء برمجة خاصة قد زرعت فرسخت وبثت فتعمقت دون مبررات واضحة أو أسباب يسهل فهمها وإدراكها.

فرغم علمي بتفاهة أفكاري ورغم حبي الشديد لزوجتي، ها أنا أفكر فيما لا يجب التفكير فيه وأسمح لعقلي بأن يتلاعب بي ويبث التشتت في كياني ووجداني.

في المساء، جلست فوق السرير أتحدث مع ليلي، بينما كانت ترقد عن يساري وكنت أتأمل عينيها اللتين نال منهما الإجهاد والإرهاق. فقد توجهنا إلى غرفة النوم بعد أن تناولنا الجورجونزولا وشربنا عصيرا منتجا بواسطة سان بينيديتو وشاهدنا فيلما لمونيكا بيلوتشي يدعي "لا ريفا".

تحدثنا عن الفيلم في سرعة تامة، حيث اتفقنا على هشاشته وكون بيلوتشي ثمرته الوحيدة، وانتقلنا بعد ذلك إلى التحدث عن العمل.

حدثتني عن مطعمها الصغير الذي افتتحته منذ عدة شهور وأخبرتني بأن الإيرادات ليست بالرائعة لكنها رغم ذلك تكفيها وتشعرها بنفسها، وقد حدثتها عن تطورات مهنتي وتعاقدي مع شركة إنتاج تلفزيوني معروفة بهدف كتابة السيناريو الخاص بمسلسلها الجديد.

وقد تحدثت بعدها عن رغبتها في الحصول علي طفل يداعبها وتداعبه، يمنحها أملا وتمنحه عاطفة، تسعده ويسعدها، تشعل حماسته ويشعل حماستها. فأخبرتها بأن تدعو الله بأن يمنحنا الخير كله ويبعد عنا الشر كله.

أخبرتني بأن المرأة ترقد بداخلها الأمومة، فقد غرست فيها حنية كبيرة وعاطفة عظيمة، ومن الضروري لهذه العاطفة أن تصرف وتوزع، وإلا أصبحت حملا وعبئا لا يطاق، فترهق ويصيبها الفتور.

وتابعت كلماتها موضحة لي أن الكثير من المراهقات الصغيرات اللاتي برزت مفاتنهن وظهرت عليهن ملامح الأنوثة، قد يصرفن الحنية النائمة بداخلهن تجاه قطة صغيرة أو كلب شقي. وعندما يظهر لهن فارس الأحلام على الساحة، سرعان ما يتخلين عن الرفيق الأليف وينشغلن بالرفيق الجديد والمولود المنتظر، رغم كون الأمر فخا كبيرا بطبيعة الحال. وقد ضحكت دون انقطاع بعد أن كشفت عن محاولتها طرق أبواب

المزاح، ونظرت إليها معبرا عن دهشتي وتعجبي من ملاعباتها الشقية وتلميحاتها الخفية.

-19-

جاءني رجل عجوز في منامي كاشفا عن أير بلا روح وجسد بلا بريق، كانت الصحراء تحوطه وكانت قبيلة من النساء تسبقه، اقترب مني ووصفني بالكاذب الماجن الواهم، لكن ما أثار دهشتي وسمح للقشعريرة بأن تنال مني وبث الاضطراب في جهازي العصبي الواهن، تمثل في وجهه القبيح ونظرته المخيفة التي لم تعبر سوي عن التهديد والوعيد.

صار أكثر قربا مني، ضمني إلى صدره، فصرت سجينا بين ذراعيه، وحبست في زنزانة لا تليق بي ولا يمكنها أن تمنحني الراحة والطمأنينة.

هربت منه، فلحق بي، صممت على الفرار، فصمم على ملازمتي، ولم يكتف بذلك بل أمر قبيلته بأن تتبعه وتسير على نهجه وتقتفي خطاه.

لقد لف يديه حول عنقي، كاد أن يخنقني، أظهر أطيافا من الشر والعدوان والتبجح، وعندما أحسست بأن روحي قد أوشكت على الصعود إلى السماء، استيقظت مفزوعا من نومي، فأصبت ليلي بفزع أيقظها، فأسرعت بمناولتي كوب ماء كان عونا لي في التخلص من تأثيرات كابوس بث الاضطراب في كياني.

تراب ناعم إذا وطيء ثار غباره، غبار يمنع المرء من أن يكون ساهيا لاهيا، وسكون صار من المستحيل بلوغه، فالوجود يبث الاضطراب في الكيان والمرء مكدود على أمره وسط البلاء.

الحل يكمن في التغافل الذي لولاه ما استمرت الحياة، فالأمر بأكمله لا يمثل سوي التوتر والهياج، وصار من الصعب أن تخمد النيران.

فإن سكن لهبها وبقي جمرها، أشعلت من جديد، وإن نال منها الخمود مجددا، هاجت بدعم من أسباب تافهة وحروب اشتعلت بعد صلح ووفاق.

-20-

تكوعت في ركن، تكوعت محاولا أن أقاوم طعنات التوتر والتشتت، تلك الطعنات التي لا ترغب في أن تفارقني ولا تبرحني فتسمح لنفسي بأن تهدأ وتتيح لعقلي بأن تشمله السكينة.

إن حالتي لا تمثلها المأساوية ولا تعبر عنها الفكاهة، إنها منطقة رمادية لا يمكنني مغادرتها ولا تسمح لي التجربة بالتخلص من تأثيراتها. لقد أحل لي الاقتراب من أشياء محددة، وسمح لي بصعود سلم لا أرغب في صعوده، وكتب على الحراك الأجوف، ذلك الحراك الذي لا يساعدني على إيجاد المعني، ورغم ذلك، يرقد المعني في العالم الآخر، يرقد في منطقة عنوانها الروحانية ويكمن في بيئة تمثل الملاذ والخلاص.

لطالما رأيت أن العقل المفعم بالجمال قادر علي رؤية كل جميل، ورغم ذلك، كنت عاجزا عن استشعار الجمال واستخلاص ملامحه بصورة حقيقية في أغلب الأحيان، فمن السهل أن نلفظ الكلمات ومن الصعب أن نترجمها إلى أفعال.

إن العقل يحتاج إلى التدريب والتطويع، فثوب معوز لن يمنحه ما يريد، إنه في حاجة إلى ثوب جديد، ثوب يمنحه القدرة على شم كل أريج، وفي الوقت عينه يساعده على التخلص مما لا يفيد.

ورغم ذلك، كثيرا ما نحب ألا نتخلص من كل ما هو قديم، حبا فيه وتلذذا به وخوفا من الاصطدام بكل ما هو جديد. لكن الجديد قد يكون مفيدا في بعض الأحيان، وحينها لا يمثل

الأمر اصطداما بأي شكل من الأشكال، لكنه يمثل ملاقاة ودفئا وعناقا طويلا عنوانه الراحة والسلام.

لطالما جلس المراهقون يتحدثون عن التنمية البشرية وقوالب محددة للتصرفات والنشاطات، ورغم ذلك، تصاعدت رائحة العشوائية في نهاية المطاف، فلو طبق النظام، صرنا في جنة يخبرنا المنطق بأنه من المستحيل أن نشهدها على أرض نالت منها تغيرات الزمان وضربات الظلام وصراعات الأنام.

إن عقل الصغير لم يتعرض بعد للكثير من الصراعات والتوترات، لم يعرف الحقيقة ولم يدرك المسيرة، فيعيش بين خيالات عديدة وأحلام كثيرة، وعندما يصطدم بالواقع في سن محددة، يشعر بالفزع، لكنه سرعان ما يتكيف مع التغيرات ضاربا بأوهامه عرض الحائط ومحاولا التأقلم مع ما تقدمه إليه الحياة في كل ثانية ودقيقة.

ورغم ذلك، سرعان ما يجد نفسه عاجزا عن التفاعل مع الواقع بكفاءة ودقة، فيلجأ إلى الوهم مجددا، لكنه في هذه المرة وهم من نوع آخر، وهم جامع بين الواقع والخيال، فلا يركن إلي الخيال وحده ولا يعمد إلى الواقع بمفرده.

فإن اعتمد المرء علي الخيال وحده، أصابه الجمود ونال منه السكون وأصبح عاجزا عن التعامل مع الحراك، وإن لجأ إلى الواقع بمفرده معتقدا أنه يمثل الحياة، أصابه الإنهاك ونال منه التشتت وأصبح عاجزا عن الاسترخاء والهروب.

ألفريد أدلر، ذلك النمساوي المعروف الذي أخبرنا بأن القوة الدافعة في حياة الإنسان تتمثل في الشعور بالنقص، الشعور بالنقص تجاه كل شيء والوصول إلى حالة من الملل، حالة من الملل ناجمة عن التعود على هذا الشعور والتكيف معه ومحاولة تحقيق التصالح مع انبعاثاته التي لا حصر لها.

وقد يؤدي هذا الشعور إلى الكثير من الآليات التعويضية وظهور العديد من الاتجاهات العصابية الأنانية والانسحاب من العالم الواقعي وصراعاته التي لا حصر لها.

حدثتني ليلي بهذه الكلمات، نقلتها إلى عقلي ببساطة تامة، فرسخت حتى تعمقت وثبتت حتى تمكنت. وقد أخبرتها بأن الشعور بالنقص يحاصر الجميع وأن الهروب منه لا يمثل سوي الوهم والسراب والمستحيل.

تابعت كلماتي موضحا لها أن وظيفة العقل البشري تتمثل في العمل على حل المشكلات، بعد أن يتم البحث عنها والوصول إليها، وأخبرتها بأن الإحساس بوجود نقص أو خلل بمثابة القوة المحركة لنا والقادرة على إثارة فضول أذهاننا. لكنني سرعان ما عرضت عليها فكرتي القائلة بأن الإحساس بالنقص قد يصل إلى درجات عالية من الممكن أن تتسبب في الكثير من المشكلات والاضطرابات على كافة المستويات.

إن العقول تبحث عن النقص، تفتش كثيرا دون ملل أو كلل، تسعي نحو إيجاد الخلل، ورغم عدم قدرتها على حل الكثير من

المشكلات النائمة، إلا إنها تصمم على المضي إلى الأمام، تصمم على التنقيب عن الصراعات وتسير على نهج واحد، نهج يمثل الخلل وتيرته ويجسد الصراع سمته الرئيسية.

ورغم ذلك، لا يأخذ الإحساس بالنقص هيئة واحدة على الدوام، فقد يظهر عند البشر بصور مختلفة وقد تعبر عنه الكثير من الحالات، الحالات التي ترسم ملامحها اعتمادا على الظروف والبيئات، والتي من خلالها تتضح الصورة ويرصد الكيان.

إن الشعور بالنقص قد يؤدي إلي زيادة الرغبة في الاستيلاء، لكن الواقع يخبرنا بأن العشوائية تسيطر على مفهوم الاستيلاء، فيصبح الإنسان حائرا لا يعرف حقيقة الأمور ولا يدرك ماهية الأشياء التي من الضروري الحصول عليها وحيازتها.

استمر الحديث دون انقطاع، تسلل الدفء إلى الأجواء، وأصبحت ليلي فرحة بتبادل الحديث بعد أن كانت الكلمات قد فارقت الكثير من جلساتنا وأصبح البرود سيد موقفنا.

إن الصمت قد يتسلل إلى الكثير من الزيجات، فينم عن شرخ عظيم أو إحساس خطير، وقد يعبر عن خلل جسيم من الممكن أن ينهي العلاقة دون سابق إنذار. ورغم ذلك، قد يكون طبيعة الزوجين الصمت وقد يمثل الهدوء طبيعة اللقاء، فالتعود سيد الموقف والاختلاف جوهر السياق.

-22-

أخبرت ليلي بأن الكلاب لا ترغب في السكون، تنبح دون توقف كالمجنون، تسعى نحو تعكير صفو مزاجي وترغب في إلحاقي بحالة من التشتت والتوتر، ورغم ذلك، ها أنا أحاول أن أكافحها وأن أتخلص من تأثيراتها التي لا حصر لها، تأثيراتها التي تبث العشوائية في عقلي دون قدرة على التركيز أو الوصول إلى حالة من الاستقرار.

فعندما ننظر إلى حركة الكلاب العشوائية، تلك الحركة التي تنم عن التيه والافتقار إلى خارطة الطريق، نشعر بالحيرة ونسعى نحو إدراك حقيقة أفعالها وأهدافها ومساعيها.

لكن الواقع يخبرنا بأن الإنسان، رغم حركته الظاهرية المنظمة والتي تأخذ من الاستقرار والثبات هيئة لها، كثيرا ما تتحرك أفكاره عقله بصورة لا تختلف عن تحركات الحيوانات، تلك التحركات التي تمثل العبثية مصدرها الرئيسي وتجسد الفوضى هيئتها التي لا تفارقها.

ورغم ذلك، قد يأخذ الحراك البشري هيئة غريبة مفعمة بالعشوائية والعبث، فقد يتحرك الإنسان دون خارطة طريق، وقد يتخلص منها بنفسه بعد أن يكتشف حقيقة الحياة، تلك الحقيقة التي تخبرنا بأن التنظيم سرعان ما ينهار وأن التخطيط سرعان ما يصبح ضربا من الأوهام.

فقد عرفت الكثيرين ممن كانوا ناجحين، ورغم ذلك، تغيرت الأفكار في لمح الأبصار، فعربدوا تائهين وتمردوا متبجحين،

فنال منهم الهلاك وسيطر عليهم الفراغ، فصاروا من قاطني الجحيم وأصبحوا من ساكنيه الأبديين.

إن الحياة تحتاج إلى التجاهل، إلى التغافل، إلى التغاضي، إنها في حاجة إلى التقليل من المشتتات والتفعيل فيما يخص منظومة الأوهام، فلولا الوهم لكانت الحياة فوهة من فوهات بركان أو جحيما يقوده أبالسة شملهم الغرور والنسيان، فصار الشر دربهم الأبدي وصار التنقل المتغافل محفزهم الفوري الذي لا غني عنه ولا تحرك دون وجوده.

جاءتني في منامي ليلي، حدثتني بأنها علي علم بأفعالي وأسراري، فأخبرتها بأن أفعالي واضحة وأن أسراري قد كشف عنها، فأخبرتني بأنها لا تحب الأكاذيب ولا تحترم أصحاب الألاعيب.

استيقظت من نومي مفزوعا، وجدتها إلى جانبي غافلة، خرجت إلى الصالة، وجلست على أريكتي لأشاهد التلفاز محاولا أن أتفاعل مع ما يشغلني ويخلصني من أفكاري المزعجة التي لا حصر لها.

لم أكن أعلم أن المرء عاجز عن إدراك بعض الراحة في هذه الأيام، فبينما كنت منخرطا في بيئتي المفعمة بالدفء والطمأنينة ومنغمسا في متابعة ما أشاهدِ، إذ بجرس الباب يدق بلا هوادة، وقد نطرت من مقعدي كما تنطر الأشياء المزعجة من يد صاحبها الحنق، وبمجرد فتحي لبابي، وجدت نفسي واقفا كطفل صغير أمام كارثة محققة.

كان الشيطان نفسه، اختصني بظهوره ودخل منزلي دون ترحيب، وقد ارتعدت فرائصي وأخذ العرق يتصبب مني وشملتني حالة من القشعريرة غير المسبوقة، ووجدت نفسي فجأة أجلس مع كائن لا أفهمه على أريكتي التي لطالما رحبت بضيوف تقليديين، لكنها هذه المرة في وضع غريب ومريب.

امتلأت الصورة بألوان عديدة وأضواء عجيبة، وأخذ اللون الأحمر في التأرجح والتلاعب كثيرا، ووجدت نفسي في بيئة ماورائية لا أعلم عنها شيئا ولا أفهم كيف أقحمت فيها.

ظهر لوسيفر لي، تجسد أمامي بكل ما يحمله من شرور، بكل إغواءاته التي تسللت إلى عقول البشر ودفعتهم إلى الانغماس في بيئة التمرد والعصيان، ولعلني كنت من ضحاياه، ورغم ذلك ربما كنت ضحية نفسي وعبد أهوائي الأنانية.

تناقشنا حول الكثير من الأمور، وأخذ يحدثني دون توقف مفصحا عن العديد من الأفكار العبثية والعشوائية، ورغم محاولتي إنهاء الحديث والتخلص منه إلا إنه قد صمم على الاسترسال والتعمق في سرد الكلام، وأخذ يتنقل بين الموضوعات بسرعة يصعب وصفها أو التعرف على ماهيتها.

استمد الموقف هزليته من فرض اللعين لنفسه على وتطفله على بيئتي، وتمثلت الطامة الكبرى في عدم فهمي لملابسات حضوره، وفي الوقت عينه لم أوفق في التكيف مع فكرة وجودي في حضرة كائن غريب لا يمت إلى عالمنا بصلة على المستويين الحسي والمادي.

شيء ما قد تبدل واختفت الألوان والأضواء، واكتشفت فجأة المشهد الحقيقي الذي غفلت عنه. إنها شروري الدفينة، فقد انبثقت من داخلي وتجسدت أمامي، فسمحت بخروج شيطاني وظهوره إلى العلن.

واجهت نفسي بحقيقتها وحاولت التخلص من تناقضاتها وصراعاتها لعل الحبور والغبطة يشملان كياني ويأخذاني إلى الراحة الأبدية والطمأنينة الداخلية.

حل الصباح، بيضتان طازجتان تُقليان على نار هادئة، قميص أزرق يشبه قميص بريجيت باردو في "وخلق الإله المرأة"، ترتديه جميلتي التي استيقظت مبكرا كشمس مشرقة، لكنها ليست ببار دو، ليست بقطة العامة بل قطتي وحدي.

بعد الانتهاء من الفطور، جلسنا سويا لنتحدث عن الكثير من الأمور، قبل أن ننزل إلى العمل ونخوض المعركة من جديد.

تنهدت حزنا، اعتدلت في جلستها، ضمت رجليها، وأخبرتني بأن هناك ما يقلقها ويحوطها بالاضطراب والقلق، فحاولت أن أطمئنها لكنها سرعان ما أوقفتني ولم تسمح لي بمواصلة كلماتي.

لقد أخبرتني بأن هناك ما يضايقها حقا، وأن الحياة مفعمة بالخفايا والقلوب مسجورة بالخبايا والنفوس مترعة بالأسرار، وأن ما أكنه لها يخفي عنها وما تكنه لي يخفي عني، وتابعت كلماتها موضحة لي أن كل ما ستر لا مناص من كشفه وكل ما حجب لا محيص من فضحه.

تسللت الحمرة إلى وجهي، فجعلتني كمن ألقي به في أتون الجحيم دون إنذار، حوطني الفزع وملأني الهلع، فصرت كمن وقع أسيرا بين أيدي أعداء اعتبرهم أصدقاء في يوم ما، تلخبط حالي وارتعش كياني وأحسست بما لم يخطر على بالي، فبرحت مقعدي وأخبرتها بضرورة أن ننزل إلى العمل، لأن وقته قد حان

ولم يعد هناك ما يستحق الكلام، بعد أن غاب المنطق عن الساحة وسجر إناء التلميحات والإيحاءات.

تأملتني حائرة، بادلتها النظرات بحيرة مشابهة، اقتربت منها فصدتني، حاولت أن أفهم ما يجول بخاطرها فأحبطت محاولتي، فغادرتها مسرعا بعد أن توعر الأمر وحوطه الضباب.

-25-

في مقهى أنيق، جلست مرتخيا بعد أن رتخت عن العمل، وقد جاءني صديق قديم يدعي مارشيلو، فجلسنا حتى مللنا الجلوس وتحاورنا حتى مللنا التحاور.

كان كارها للنساء، جمع بين الميسوجينية والجينوفوبيا، فصار وضعه غريبا عجيبا، وتحول بتلقائية يصعب فهمها أو التعرف عليها إلي عقل مبهم إذا اقتربت منه امرأة قذفها بالحجارة وإذا صادفته فيمينيست ود لو قتلها في الحال ووزع أشلاءها دون كلام.

أخبرني بأن النساء عاهرات لا يرغبن سوي في الحصول على المال، ووضح لي أن الأمر لا يختلف بينهن في كل البلدان، فمقابل أن يمنحن الرجل عواطفهن وأجسادهن، عليه أن يقدم إليهن كل ما لا يخطر على بال، وإن لم يجلب إليهن ما يرغبن فيه، نظرن إليه نظرة كلها تحقير وإذلال.

تعجبت من أمره، أخبرته بأنني لا أتفق مع كلماته، ووضحت له أنها تحمل تحقيرا واضحا لشأن المرأة وأنه لا يصح أن تصدر عنه مثل هذه الأفكار.

لم يلتفت إلى ما صدر عني وتابع كلماته موضحا لي أنهن لا يتمتعن بنسب ذكاء عالية، وألقي أمامي الكثير من البراهين الناجحة، فأخبرني بأن معظم الإبداع في كافة المجالات مصدره الرجال وأنه من الصعب للمرأة أن تنافس الرجل في العلم والفن والرياضة وغيرها من الحقول. فصمت حتى أنهي ضجيجه

وحاولت أن أتعرف علي سر حنقه وكرهه لهن. وقد اكتشفت أن ما نجم عنه كان مصدره فتاة، فتاة أحبها وأحبته، لاعبها ولاعبته، وفي النهاية خانته بعد أن تركته في حالة من الذهول واللامبالاة.

فلم يتوقع أن تخونه قط ولم يخطر على باله مثل هذا السيناريو من قبل، فنالت منه الصدمة وتسللت إلى الأجواء الحسرة وكان من التائهين.

حاولت أن أنخفض بوتيرة الكلمات، وطلبت من الباريستا أن تحضر لنا قهوة اليوم، على أن تكون رائعة وقادرة على تعديل مزاجنا والوصول به إلى القمة في ظرف لحظات.

كانت مميزة مبهجة، رافقها اللبن باعتدال فصنع من مذاقها رونقا لا يستهان به ولا يمكننا أن ننساه، وكان الكوب قادرا على استحضار أجواء الأناقة في اللحظة، فتبدل الحال إلى الأفضل دون عناء واعتدل المزاج بعد أن ارتوينا من نهر القهوة الذي لطالما شرب منه الكثيرون على مدار التاريخ، خاصة المكتئبين والأوغاد.

ضحك ضحكة غريبة نمت عن تهكم واستهجان، أخبرني بأنه يتعجب من حال النساء في العالم الثالث، وضح لي أنهن يطالبن بالاستقلالية والعمل، رغم أن الأجواء لا تشجع العقلاء، وتابع كلماته معبرا عن تعجبه من محاولة الكثيرات منهن أن يتقدمن إلى الأمام دون رفيق، وكأن العواطف ليست بحاجة إلى إرضاء والغرائز ليست بحاجة إلى استجابة ووفاء.

أخبرته بأن مثل هذه الأمور تخص الفرد وحده، و لا تخص أحدا غيره، وأنه من الطبيعي أن نشهد تنوعا كبيرا في العقول، فلو لا التنوع ما وجد الحراك ولو لا الاختلاف ما ضخت الحياة في جسد الوجود.

تابعت كلماتي موضحا له أن العالم الثالث يعاني كثيرا، لكن الواقع يخبرنا بضرورة التحرك، يخبر الجميع بالتقدم إلى الأمام، يخبر الرجل والمرأة بضرورة المواصلة على حد سواء، لا فرق بينهما، و لا مناص من تحقيق المساواة بينهما، وهو ما يدعو إليه كل العقلاء.

لم يعبأ بكلماتي ولم أعبأ بكلماته، فأخبرته بأنني لا ألعب دور المدافع عن حقوق النساء، لكنني رغم ذلك أسعى نحو تحقيق العدالة في كل المجالات، حتى لو كنت غير مهتم بها في بعض الأحيان.

مرت الجلسة بعد عناد، ودعته تاركا إياه في حالته المأساوية دون حلول، وعدت إلى المنزل منتشيا بعد أن تخلصت مما كان قابعا بداخلي، بعد أن تخلصت من طاقة سلبية لو سكنت إنسانا لحرقته في الحال دون اهتمام و لأخذته إلى الجحيم غير عابئة بروحه ونفسه وسكونه.

-26-

عدت إلى المنزل، فوجدت ليلي باسمة الثغر جميلة الهيئة مرحة، وكانت معها من لم تكن في الحسبان.

مانويلا، تلك الفتاة المثيرة الجميلة، ها هي تجلس مع حبيبتي لتشاركها الضحكات والكلمات، تجلس معها كاشفة عن أناقة وحلاوة وبهاء، وقد احتقن وجهي بالدم وارتعشت شفتي دون سبب واضح وأحسست بأن هناك ما يخفي وراء هذه الأجواء.

كانت مانويلا ترتدي قميصا أبيض ترافقه تنورة مفتوحة سوداء، وكانت تضحك بشدة دون سبب، وقد أخبرتها بأن كثرة الضحكات قد تنم عن حزن عميق في الكثير من الحالات، فقد يخفي الإنسان ما يقطن بداخله معتمدا على إظهار النقيض، فيضحك رغم الحزن النائم والإحساس المكبوت والصيحة المكتومة.

أخبرتني بتعجبها من مأساويتي ووصفتني بالتراجيدي اللعين، فضحكت بعد أن صدر عنها ما صدر وخرج منها ما خرج، وأحسست بأن العفوية قد تسللت إلى الأجواء فكاد اللثام أن يماط عن الحقيقة وكاد ما خفي عن الأنظار أن يظهر إلى العلن.

أخبرتني ليلي بأن مانويلا قد جاءتنا لتقضي معنا بعض الوقت، وأنه من الممكن أن تقيم معنا لفترة قصيرة، وأنها قد استعانت بنا من جديد لنوفر لها مكانا تسكنه قبل أن ترحل إلى غرفة جديدة في شقة أخري.

رحبت بها، اقتربت منها، كدت أن أحضنها، كدت أن أحضنها فيتوطد ما يكمن بداخل ليلي من إحساس ويصبح الأمر واضحا وضوح الشمس في كبد السماء. لكنني سرعان ما تراجعت إلى الوراء، وأخبرت ليلي بأن السعادة قد تسللت إلى الأجواء بعد أن جاءتنا صديقتنا العزباء.

حل المساء، خرجت مانويلا لتشاركنا جلسة الليل، كان القمر يراقبنا خفية وكان الظلام منتشرا في الأرجاء. لكن النفوس كانت مترعة بالخفايا والخبايا، وكان ما يجري بداخلها محجوبا عن الأنظار، فلطالما كانت النفوس تشحن لحماقتنا وكثيرا ما كنا على أذى قلوبنا نتعاون.

تناولنا وجبة العشاء، تسامرنا كما يتسامر البلهاء، وتنقلنا بين العديد من الموضوعات كما تتنقل القردة بين فروع الأشجار، لكن الغريب في الأمر هو أن متعة الكلمات سرعان ما اندثرت وأن وقت النوم قد حل بعد لحظات.

-27-

الظلام في كل مكان، العواصف تكاد أن تمحو كل بنيان، الكيان مشتت لا يدعمه سوي النسيان، ومحاولات الحجب لم تحقق ما كان في الحسبان. لطالما تأملنا حالة سكون لم نشهدها قط، وكثيرا ما انتظرت أمزجتنا بيئة لم تحوطنا إلا في خيالاتنا المجنونة والتي لا تتصل بالواقع بأي شكل من الأشكال، وهو ما أكد لنا باستمرار على الحقيقة الخفية، الحقيقة التي حاولنا التغافل عنها كي لا نؤذي أنفسنا، ورغم ذلك، لا مناص من التعامل معها، ولا حل لها سوي التقبل والتكيف.

قفزت إلي بحر الخواطر والأشجان، تأملت حالي وحال أحبابي، فلم أجد سوي التشتت والفقدان، كانت بيئتنا بهية فأصابها ما لم يكن في الحسبان، وكانت الشمس تلاعبنا عن بعد، فانطفأت بغتة دون سابق إنذار.

تغيرت القلوب، تبدلت المشاعر، تسلل الاضطراب، وصارت حبيبتي متأرجحة المزاج، فكانت تبتسم لي تارة وتزمجر تارة كاشفة عن بوادر الانفجار.

في المقهى، جلست مرتخيا محاولا استجلاب الأجواء، تلك الأجواء الدافئة التي نسعى باستمرار نحو جذبها والتمكن منها كما يخبرنا الخيال، لكنها رغم ذلك سرعان ما تأتينا وسرعان ما تفارقنا دون اهتمام.

فالعقل بطبيعته يعشق التجول في الصحراء، وكلما حاولنا أن نبني له كوخا صغيرا يسكنه، فر دون اكتراث أو مبالاة.

إن استجلاب الأجواء الدافئة يمثل المحاولة المتكررة التي يتبناها الطفل والكبير، يعشقها الشيخ والرضيع، ويسعي نحوها كل إنسان.

ورغم ذلك، لا مناص من تسلل الاضطراب، ولا مفر من سيطرة التشتت والفقدان، فكلما حاول المرء أن ينعم بالطمأنينة، جاءه ما لم يكن في الحسبان، وكلما حاول أن يريح البال لاعبته حلقات فكره المفرغة وتمكنت منه أفكاره عشوائية لا يمكنها أن تفيده بأي شكل من الأشكال.

-28-

في المساء، جلست متحاورا مع ليلي ومانويلا حول موضوع عظيم، تحدثنا عن الفرق بين الموضوعية والذاتية، وتطرقنا إلى الكثير من النقاط التي تخصهما وتمثلهما.

أخبرتنا مانويلا بأن الموضوعية تمثل الرأي دون إقحام للعواطف وتعبر عن الفكر دون تأثير خارجي أو ضغط ما، وتابعت كلماتها موضحة لنا أنها تري أن الكثير من الأمور تحتاج إلى الموضوعية وأن العديد من القضايا لا يمكننا التعامل معها اعتمادا على العواطف، وإلا حينها تصبح كلماتنا ضربا من العبث ويصبح الحديث بلا جدوى.

وقد وافقتها الرأي ووضحت لها أن الكثير من القضايا لا يمكننا التطرق إليها معتمدين على عواطفنا، وتعرضت إلى فكرة التعامل مع الأوطان. أخبرتها بأن الواقع يخبرنا بأن الأوطان ليست في حاجة إلى العواطف لكنها في حاجة إلى الاعتراف بالحقائق، فعندما نظهر المشكلات إلى العلن ونعترف بها، نشرع في البحث عن الحلول، أما فكرة تغطيتها والاكتفاء بالتحدث عن مجد الماضي لا تمثل سوي الهراء.

تحدثت ليلي عن الذاتية، أخبرتنا بأنها تمثل العواطف، تمثل تسللها وتعبر عن إقحامها في شتي الأمور. فعندما تتسلل العواطف إلى الحديث، يحوطنا الضباب وتصبح الحقيقة بعيدة كل البعد عن أن تكشف ويصبح الأمر معقدا بصورة يصعب وصفها أو التطرق إليها.

أخبرتهما بأنني قد تعرضت إلى الكثير من النقاشات التي جمعت بين الموضوعيين والذاتيين، ووضحت لهما أنها لم تصل إلى شيء واضح وأنها لم تحقق أي تقدم، ورغم ذلك كان الاحتدام صفتها وكان الاشتعال سمتها.

تابعت كلماتي موضحا لهما أن الصحافة ليست بالضروري أن تكون موضوعية كما نعتقد، فالكثير من الصحفيين لا يعمدون إلى الموضوعية ولا يرصدون الحقيقة كما هي بل يقحمون العواطف في تجاربهم ويتحركون وفقا لأجندات خارجية تملي عليهم ما يجب فعله والتحدث عنه.

وقد أخبرتهما عن صحافة الجونزو، تلك الصحافة التي نقلت الصحفي إلي داخل السطور، فسمحت له بأن يقحم عواطفه داخل التجربة، ومهدت الطريق له كي يخبرنا عن الأمور التي واجهته بينما كان في طريقه محاولا الوصول إلى الحدث ليرصده. فقد شملت الكتابة التي مثل هانتر طومسون مصدرها إقحام العواطف وكسر الحواجز واستخدام الألفاظ غير التقليدية والتطرق إلى الموضوعات الغريبة التي لا تتماشي مع العادات والتقاليد في بعض الأحيان. وهو ما خلق تجربة جديدة في عالم الصحافة وقلل من الالتزام الشديد بالموضوعية وسمح للذاتية بالتسلل بصورة ما.

انتهت الجلسة في سرعة شديدة، وكانت مانويلا ترمقني بغرابة واضحة، وقد تسللت القشعريرة إلي كياني فأحسست بشعور لم أشهده من قبل ونالت مني أفكار لم يعهدها عقلي قط،
فأخبرتهما عن رغبتي في النوم وحاولت أن أغادرهما مسرعا بينما كان قلبي واجفا وكنت مضطربا لا أعرف ما أصابني ولا أدرك ما سيطر علي فأفقدني حيوية كانت ترافقني منذ لحظات.

-29-

استيقظت في الفجر، مررت قبالة غرفة مانويلا، فتحت الباب، ولجت مرقدها فوجدتها تغط في نوم عميق، وقد اقتربت منها ووضعت فوق جسدها بطانية من صوف، فقد كانت البرودة مستفيضة وكانت الأجواء مفعمة بالاضطراب.

وإذ بغتة تحل ليلي علينا واقفة عند الباب، وقد اقتربت مني وحضنتني كما تحضن الأم طفلها الذي نال منه البكاء، فأخذتني إلى سريرنا مسرعة وحاولت أن تساعدني على إدراك النوم بينما كانت تغني لي الكثير من الأغاني التي ذكرتني بالماضي وسمحت للحنين بأن يرهقني وللعاطفة بأن تنال مني.

أخذت تغني بلا توقف، وكلما حاولت أن أبرح مكاني وأغادر سريري، صممت علي بقائي وارتفعت بنغمتها التي لم تعرف سوي التعالي والارتفاع. وقد تعجبت من أمرها، واستهجنت أفعالها، وحاولت أن أغادرها، لكنها لم تسمح لي بذلك ولم تمنحني أي فرصة لأتصرف كما أحب وأتحرك كما أشاء.

لقد اقتربت مني مبتسمة، ضمتني إلى صدرها، ومنحتني قبلة حثيثة. دنت فتمكنت، وضعت يديها حول رقبتي فسيطرت، وحاولت فجأة أن تخنقني وتتخلص مني، وقد حاولت أن أصدها فعجزت ولم يساعدني سوي استيقاظي من نومي، استيقاظي الذي أخرجني من كابوس لم أفهمه وسياق لم أعهده من قبل في أحلامي التي لطالما كانت غريبة ومفعمة بعناصر التشتت والاضطراب والهياج.

وجدت ليلي إلي جانبي نائمة، لكنها سرعان ما استيقظت مشمولة بجزع وهلع بعد أن أحست بكابوسي، فلم أخبرها بما دار واكتفيت بتفاصيل بسيطة دون سرد أو تكرار، وقد أدركت الجميلة اضطرابي وضمتني إلى صدرها محاولة أن تهدئني وأن تمنحني بعضا من رقتها وحنيتها وطيبتها التي لطالما حوطتني بها.

-30-

جن الليل، وجدت نفسي أسير في ممر مظلم غريب، كنت أتحرك مهتديا بمصباح أشعلته بتلقائية لابد منها وإصرار ضروري لا مناص من استحضاره والاعتماد عليه. أخذت أتحرك محاولا أن أصل إلى النهاية، وفي نفس الوقت كنت خائفا من إدراكها، فرغم إحساسي بشعاع ضوء يلاعبني من بعيد، إلا أن الاضطراب قد تسلل إلي كياني، وقد شعرت بوحدة غريبة وقشعريرة عميقة، وتوصلت إلى حقيقة واحدة، حقيقة كان مضمونها التشتت والفقدان.

لم يكن ممرا واحدا، فعندما انتهيت منه ظهر آخر، وكلما تمكنت من الوصول إلى النهاية، تشكل جديد وتكون مسار غريب وطلب مني أن أسلكه دون رجوع، ورغم ذلك كنت في كل مرة أنظر إلى الوراء مشتتا وأتأمل ما يلاحقني مضطربا.

دخلت ساحة كبيرة ذات أرض زجاجية تجذب الأنظار، يتدفق الماء تحتها بحيوية وإصرار، وقد وجدت أمامي جماعة كبيرة تجلس في انتظار، وبمجرد ظهوري لها وحضوري أمامها، انهالت على بالمديح وانخرطت في التصفيق بلا توقف أو انقطاع.

وجدت عن يميني فتاتي ترقد إلى جانبي، وشعرت أنني قد خرجت لتوي من حلم غريب لم ترافقني فيه وكأنها حالة عابرة في حياتي المترنحة، وحينها تيقنت من تأثيرها الجبار وسلطتها المحكمة علي كياني وخيالي، فقد نال مني الغضب لأنها لم تكن تؤنسني في أحلامي.

استيقظت من نومها ووقفت أمامي بطولها البارز وجمالها الفتاك، فتأملت ملامحها تأملا جلب إلى ذهني مشهدا مؤثرا من "فينوس في الفراء"، وقد همت بارتداء معطفها الصوفي وغادرت الغرفة بهدف مشاهدة التلفاز.

-31-

بعد أن غادرتنا مانويلا، وفي يوم مفعم بالشؤم والسواد، تجسدت الحقيقة الخفية أمام ليلي، ظهرت إلى العلن وأصبحت جلية، فأخبرتني بأنها كانت علي علم بكل شيء منذ اللحظة الأولي.

وضحت لي علمها بشأن علاقتي غير الشرعية بمانويلا، تابعت كلماتها معبرة عن امتعاضها التام وحزنها الدفين الذي صار من الصعب حجبه وأصبح من المستحيل عدم التعبير عنه.

أخبرتني بأنها كانت قادرة على شم رائحة الخيانة وإدراك المداعبات المتبادلة غير العابئة بوجودها في كل مرة، وكانت علي علم بجولاتي الخفية والتي حاولت باستمرار أن أخفيها عن الجميع معتمدا على إظهار التقوى والورع والتلفظ بكلمات عديدة أشهرها التوبة والنقاء والروحانية.

أنصت إليها مضطربا، نال مني التشتت فصرت عاجزا عن التلفظ بأي كلمة، وأدركت مدي سذاجتي وحماقتي وطيشي الذي كنت منغمسا في بيئته دون إدراك وكنت متلذذا بما يتصل به دون فهم أو حكمة قادرة على كبح جماح نفسي.

تابعت كلماتها الثائرة وارتفعت بنغمتها التي نمت عن توغر النفس وتأصل الحنق، اقتربت مني وأخبرتني عن رحيلها في القريب العاجل وإصرارها على مواصلة حياتها بعيدا عني، بعد أن خزلتها وأحدثت اضطرابا جليا في علاقتنا التي كانت المودة محفزها وكان التفاهم مدعمها.

لم أصدق ما صدر عنها، كدت أن أصيح من فرط الاضطراب والتوتر، وأحسست بعجزي عن إقناعها بالبقاء، فكلما حاولت أن أبقيها نفرت، وكلما سعيت نحو إرضائها شردت.

-32-

مرت الأيام مسرعة، ووجدت نفسي وحيدا بعد أن صممت ليلى على الطلاق والمغادرة، وبعد أن حصل كل منا على حقوقه.

انتقلت إلى شقة جديدة بالدور الثالث في بناية قديمة نال منها الزمان، وقد تزوجت من مانويلا محاولا درء وحدتي، وتمكنت من الحصول على وظيفة جديدة بإحدى القنوات الكبيرة، لكن الغريب في الأمر تمثل في عجزي عن نسيان ليلى وضعفي تجاه استدعاء الذكريات التي جمعتنا.

إن الذكريات تحاصرني باستمرار رغم محاولاتي المطردة للتخلص منها، فالماضي يلاحقنا كما يلاحق الوحش الضحية، ورغم التهام الزمان لكل شيء، إلا أن العواطف المضطربة تلاعبنا والمشاعر الجياشة تداهمنا لترهقنا على مدار الأيام.

إن تراجيديا الإغريق تعجز عن وصف ما وصلت إليه، ومسرحيات شكسبير قد تقف أمام حالتي متعجبة من أمري، ومحاولات أشهر الكتاب الهادفة نحو وصف إحساساتي قد تبوء بالفشل.

ورغم ذلك، ها أنا أتحرك دون أن أظهر شيئا لأحد وأسير وحيدا رغم كوني محاطا بالكثيرين، فما نال مني أحدث اضطرابا شديدا بداخلي، ولم أعد قادرا على مبادلة الحب مع مانويلا، فلم يكن حبا منذ البداية ولم يكن سوي مصيدة أوقعتني وسيطرت على كفار أبله نال منه متربص محنك.

لقد بحثت عن ليلى فلم أجدها، اتصلت بها فلم ترد، وطرقت بابها فلم تهتم، ومرت الأيام كما يمر القطار وتأقلمت مع الحدث دون

انبهار، فلم أعد أشعر بشيء كلما راودني جديد ولم أعد ألتفت كلما حدث تغيير جوهري في حياتي أو حققت نصرا عظيما في مجال عملي.

مرت الأيام مجددا كما يمر القطار، وقد نال شرخ من علاقتي بمانويلا فانفصلنا في سلام، وصرت وحيدا على الصعيدين الظاهري والداخلي بطبيعة الحال، وأحسست بأن القدر قد وضعني في موقف غريب لا أفهمه وأشعر بعجزي عن التعامل معه أو التكيف مع مفرداته.

قد يخفي العشق المزيف بالملامح المتلاعبة الخبيثة، وقد تشتد نيران الدراما لتجعل من الواقع بيئة تمثيلية، يلعب فيها كل إنسان دوره وينهيه في سرعة وبراعة، ورغم ذلك قد نبذل الكثير من الجهود ونقضي الوفير من الأوقات، لنكتشف في النهاية أن الدور لم يكن جديرا بذلك وأننا لم نكن سوي مساعدي الشيطان، لم نكن سوي بعض الخونة الذين تعاونوا على خيانة أنفسهم قبل أن يخونوا أي إنسان آخر.

إن انتهاء العلاقة كان منطقيا، كان منطقيا لأننا قد أدركنا فعلتنا، أدركنا أننا قد خزلنا الحبيبة والصديقة من أجل متعة فارغة ظننا أن الحب يتخفى وراءها، لكننا لم نجد في النهاية سوي الخراء والهراء، فسرعان ما تبخر وسرعان ما اندثر.

لقد جلست في شقتي أتأمل حالي وحال الدنيا، حاولت أن أبحث عن المنطقية فيما يخص السرد فلم أجدها، وسعيت نحو إدراك مساري فلم أشهد سوي التشتت والتوتر والاضطراب، فخارطة الطريق لا تسمح لي بأن أفهمها وكل ما هو ذو بريق يخفت ضوؤه بمجرد أن أقترب منه.

إننا علي علم بأن الأضواء لا تحمل وراءها سوي الوهم والخيال واللحظات العابرة والمتع الفارغة، وندرك حقيقة أن التفاعل معها يعد ضربا من السذاجة، لكننا رغم ذلك ننبهر بها ونرغب في تأملها باستمرار ونسعى نحو التعرف على ما يقبع خلفها بلا هوادة، وهو ما يدل على الحقيقة التي لا مناص من الاعتراف بها، تلك الحقيقة التي تخبرنا بأنه لا بأس بمطاردة الأضواء ولا مأزق إذا تجاوبنا معها بين الحين والآخر.

لكن النقطة الهامة التي تخص هذا الشأن تتمثل في ضرورة تصالحنا مع أنفسنا، وأهمية أن نتقبل كل التوصيفات المقترنة بالسذاجة وكل الاضطراب الذي يصاحبنا مع كل حركة نقوم بها.

فعلي الفاشل أن يتقبل فشله، وعليه أن يتقبل كل التوصيفات المصاحبة للفشل، وحينها يصبح اعترافه بمشكلته الخطوة الأولي تجاه حلها والتخلص منها. وهو الحال بالنسبة إلى ضمن إطار مختلف، فمن الأفضل أن أعترف بكوني خائنا وحينها أصبح قادرا على التخلص من كل الأسباب التي منحتني هذه الهيئة، وفي النهاية، قد أجد نفسي أفضل حالا بكثير.

إن الحياة ترتبط بالتقبل والتجاهل، فعلينا أن نتقبل تبعات أفعالنا والأحداث التي تقابلنا والعقبات التي تحد من حراكنا، وبالنسبة إلى التجاهل، فهو الأساس، ولولاه ما تقدمنا إلى الأمام، لأنه يرتبط بالنسيان، ولولا النسيان ما كان الإنسان.

-34-

قضيت فترة طويلة قبل أن تأتيني جابرييلا بالطعام، جابرييلا، تلك الفتاة الجديدة المغربية التي تعمل بالمطعم المفضل بالنسبة إلي، ذلك المطعم الأخاذ الذي لطالما زرته قاصدا طعامه لجودته وطزاجته، وكثيرا ما كان موطنا للأحاديث التي دارت بيني وبين ليلي ومانويلا، مع كلتيهما أحيانا ومع إحداهما أحيانا أخري كثيرة.

صرت محبا للتحدث معها، لكن معظم الأحاديث الدائرة بيننا كانت رشيقة سريعة تمر في لمح البصر، وهو ما يعود بمنطقية إلى طبيعة عملها التي لا تعرف استقرارا في مكان و لا تدرك سوي التنقل بين الزبائن بلا توقف أو سكون.

وبينما كنت مندمجا مع حديثنا المتقطع، ظهرت لي على الساحة مانويلا، وقد اقتربت منا حتى صار وجهها قريبا من وجهي وصار جسدها قريبا من جسدي، وعندما حاولت أن أتحدث إليها، بعد أن صدمتني المفاجأة، ولت مدبرة، بينما جاءت ليلي مقبلة، فتسللت القشعريرة إلي كياني وأحسست بأنني في حلم ما، ودار كل ما رأيت في حضور جابرييلا، جابرييلا التي وقفت بيننا مذهولة حائرة.

سرعان ما عادت إلى الطاولة مانويلا، فوقفت إلى جانب ليلي وجابرييلا، وعندما حاولت أن أتفوه ببعض الكلمات، حدث ما لم يكن في الحسبان، ظهر ما لم يراود خيالي قط، ونالت مني طعنات كادت أن تقتلني من شدتها وصدمتني ضربات لم أتوقع أن تصدر عن كيان كان في يوم من الأيام قريبا مني ومصدرا لدفئي وطمأنينتي!

طلبت ليلي من جابرييلا أن تبتعد عني وألا تتعامل معي على الإطلاق، وقد وصفتني بالرجل الذي خبلته الهموم فصار مخبولا، وتابعت كلماتها موضحة لها أنني أجلس كل يوم في نفس المكان لساعات طويلة دون أن أبرح مقعدي، بينما أتفوه بالكثير من الكلمات التي لا تفهم وكأنني أصنع الكثير من القصص والروايات معتمدا على الأوهام والخيالات.

وقد تحدثت مانويلا معتمدة على نغمة مشابهة، وقالت إنني كثيرا ما أجلس في المطعم بينما أطالبهما بالطعام والقهوة والماء وغيرها من الخدمات التي لا تحصي، وأنني لا أكتفي بذلك بل أجبرهما على التحدث معي باستمرار وأردد اسميهما بتكرار، غير عابئ بمشاغلهما العديدة والتي تقترن بالزبائن الكثيرين الذين يعج بهم المكان.

أخبرت الفتاتان جابرييلا بأنهما تشفقان عليها من التعامل معي، وأنهما لا ترغبان في أن يصيبها الإرهاق الذي نالتاه مني، وأنه من الأفضل لها أن تخدم زبائننا آخرين، على أن تتركني لهما، بعد أن تأقلما معي وصارتا قادرتين على تحمل ما يصدر عني.

كانت النغمة ممزوجة بالتبجح والغرابة، لم أفهم ما حدث، وقد ضحكت دون توقف، وأخذت ضحكاتي تتعالي في عنان السماء، لكن الغريب في الأمر تمثل في الضحكات الصادرة عن الفتاتين، تلك الضحكات التي أخذت في التعالي دون الاهتمام بكلماتي، بينما كانت جابرييلا ساكنة هادئة بينهما، بعد أن نال منها الذهول واللامبالاة.

كلما حاولت أن أقترب منهما، لم أجد سوي النفور، وكلما سعيت نحو إدراك الموقف، لم أشهد سوي التخبط والاضطراب،

فأسرعت بالمغادرة وعدت إلى منزلي محاطا بالهيجان والاختلال والفوضى العارمة، تلك الفوضى التي نجمت عن أفكار متضاربة تمكنت من العقل فأرهقته وسيطرت على الفكر فأنهكته وجعلت مني رجلا مشتتا ضالا لا يفهم مساره ولا يدرك قصته.

تكوعت في ركن، تكوعت محاولا أن أقاوم طعنات التوتر والتشتت، تلك الطعنات التي لا ترغب في أن تفارقني ولا تبرحني فتسمح لنفسي بأن تهدأ وتتيح لعقلي بأن تشمله السكينة.

وقد كانت السماء هائجة، سيطر عليها البرق، نال منها الرعد، وصار هطول الأمطار قريبا، ولكن هل ستهطل الأمطار حقا؟!

فإن النباح يلاعبني، ولا يرغب في الانقطاع، والسيمفونية تعزف من جديد ولا يمكنني أن أجابهها، فهل من الممكن لهذه الوتيرة أن تهدأ؟ وهل من الممكن للنباح أن يفارقني؟!

-35-

ها هي تنبح و لا ترغب في التوقف، تنبح ويتعالى نباحها، تنبح وترافقها سيمفونية الذكريات الأليمة واللحظات الخبيثة والأحداث المقيتة. انقطاعها صار حلما لا يدرك، انخفاض ضجيجها أصبح مستحيلا، والتخلص من تأثيراتها لم يعد ممكنا.

إنه نباح بلا فاصل، نباح يحمل وراءه الكثير من المآسي والمرازئ، ورغم ذلك لا مناص من محاولة إخماده والتخلص من بواعثه. لكن التشتت قد نال من البواعث، والعشوائية قد سيطرت على الموقف، فاختلطت الأمور وصارت جميعها في بوتقة واحدة، بصورة غريبة لا يمكن التعرف على ماهيتها أو التطرق إلى حقيقتها عن كثب.

إن الفراغ يسيطر على العقول، وانبثاق الأفكار لا يعرف طريقة واضحة، فتخرج الأمور دون تنظيم وتطرح المسائل دون قدرة على التفاهم أو التعامل.

لطالما كان النباح أمرا لا يمكن الاستغناء عنه، لكن الفواصل كانت قادرة على منحه بريقا خاصا، أما غيابها الذي أصبح محققا في الآونة الأخيرة أفقده ما كان يتمتع به وصنع منه ضجيجا مؤذيا يصعب التعامل معه ويعجز المرء عن التفاعل أثناء وجوده. ورغم ذلك، من الممكن معاملته كضوضاء بيضاء، ومن المتاح تجاهله في بعض اللحظات، لكن التجاهل في هذه الحالة يعد ضربا من الوهم، ولولا الوهم لكان الموقف أكثر غرابة وفظاعة.

توجهت إلى النافذة المطلة على الشارع، نظرت إليها من الأعلى، حيث الدور الثالث، صرخت فيها بشدة محاولا أن أنخفض بوتيرة نباحها التي لا تدرك سكونا. لكن عنادها حال بيني وبين الوصول إلى مبتغاي، ولم تكتف بتصميمها على مرادها، لكنها واصلت نغمتها وسيمفونيتها الغريبة، تلك السيمفونية التي جمعت بين المآسي والمسرات في أوقات محددة، وركزت على المآسي وحدها في أوقات أخري عديدة.

وكأنها حالة من التباس الأحاسيس، حالة يضحك فيها المرء مقهقها بينما ترافقه دموعه التي تتساقط بغزارة. وفي نفس الوقت، يعد الالتباس التباسا غريبا يجمع بين التطرف فيما يخص الأحاسيس وغياب المنطق فيما يخص الأفعال.

إن الباحة الخلفية مفعمة بالكثير من الكلاب، كلاب لا ترغب في السكون، وكأن سكونها أمر عسير، وكأن برمجتها لا تعرف سوي هذا الإطار وإدراكها لم يشهد سوي هذه الوتيرة منذ أن وجدت وتنفست أنفاسها الأولي.

إنها خدعة، نعم، مجرد خدعة!

تمت

أعمال المؤلف

الأعمال القصيرة

كتيب تأملات سينمائية	105 صفحة
كتيب تشريح الغريزة	105 صفحة
كتيب اللذة الغامضة للاشيء	80 صفحة
كتيب لافام فاتال في الفيلم السينمائي	80 صفحة
كتيب مدخل إلى السينما السريالية	112 صفحة
كتيب الجنس و الموت	100 صفحة

الأعمال الروائية القصيرة

العمل الحالي نباح الكلاب في الباحة الخلفية	100 صفحة
العمل السابق الدوغمائي ذو اللحية الحمراء	100 صفحة
العمل القادم تقوي العربيد	

الأعمال الطويلة

كتاب الإيروسية و الثاناتوسية	205 صفحة

من أقوال المؤلف

المرء في حاجة إلى الموازنة بين الواقع والخيال، فإن خضع للواقع أنهكه، وإن سيطر عليه الخيال وحده عاش أسيرا للأوهام والخيالات.

النفس البشرية مضطربة باستمرار، لكن اضطرابها لا يعني بالضرورة أنها في موقف عصيب، بل من الممكن أن يكون اضطرابا ينم عن التحرك وإقحام كل ما هو جديد.

من الضروري ألا نتعامل مع الواقع وفقا لاتجاه عبثي قرأنا عنه في كتاب ما، فالكتابة العبثية تهدف إلى التمتع لا أكثر ولا أقل، لأن الإنسان كثيرا ما يجد المتعة في الفقدان والإحساس بكونه ضحية نال منها التشتت، وهو ما يمثل طيفا من أطياف النفس البشرية التي لا يجب الاستسلام إليها بأي شكل من الأشكال، ورغم ذلك لا مانع من القراءة عن الأفكار العبثية دون أن ننسى مكامن المعني، تلك المكامن التي يمثل الدين قمتها.

إن الإله أكبر من كل ما يمكننا أن نتخيله وألا نتخيله، ولهذا وسعت رحمته كل شيء.

يرصد الكثير من المؤلفين المشاعر الإنسانية المختلفة، ورغم ذلك، تركز معظم أعمالهم على التوتر والتشتت والاضطراب، لأن إبراز هذه المشاعر يخلق حالة من التراجيديا والميلودراما، مما يحرك القلوب ويثير النفس القارئة.

العقل الواعي هو الذي ينصت إلى المأساة والصراعات، وينتقل بعد ذلك إلى المرح والاستمتاع بالحياة دون مبالاة، فهو عقل قادر على التنقل بين البيئات المختلفة بمرونة وبارع في التخلص من المشتتات حينما تحل اللحظات العذبة التي لابد من الاستمتاع بها وجني ثمراتها.

التحدث عن المأساة والتوترات والعبث لا يعبر عن الواقع بصورة كاملة، ويعمل على المبالغة ومحاولة جذب الأنظار، وهو ما يختلف عن الحقيقة، تلك الحقيقة التي تخبرنا بأن العقل البشري لا يمتلك الكفاءة الكاملة ليدرك اللحظة ولا يمتلك مشكلة كبيرة فيما يخص التكيف والتعود، لأنه بطبيعته يتعود على كل شيء بمرونة، ومع الوقت، يعشق الملل ويتقبل الخسائر وينظر إلى الحياة على أنها أنشودة لعصفورة سكنت شجرة في يوم من الأيام، ثم رحلت.

العلاقات العاطفية تعتمد على المناوشات والملاعبات، وتهدف إلى الإحساس بالسكون، لكنه لا يتحقق بصورة تامة، لأنه إذا تمكن منها شملها الفتور، وفي نفس الوقت، لا يمكنني أن أتغاضى عما يرقد وراءها، وهو ما يعرفه الجميع. إن السكون قادر على التسلل إلى التجربة بين الحين والآخر، ولكنه سكون عارض، سكون قد يتلاشى في لمح البصر حينما تغضب الأنثى. وحينها تتهم الرجل بأنه السبب القابع وراء غضبها وحنقها، وهو ما يمثل الحلقة المفرغة التي نعرفها جميعا، تلك الحلقة التي قد تتحرك كافة المنظمات الحقوقية النسوية للانخراط فيها، وفي المقابل يجلس الرجال غير عابئين بأي شيء كعادتهم.

الإنسان يتحرك لأسباب عديدة، يتحرك ليحقق ذاته، ليرضي غرائزه، ليظهر التميز، ليدفع النقص، لكنه علي علم بالحقيقة، تلك الحقيقة التي تخبره بأنه فان كمن سبقوه، ورغم ذلك، لا يمكنني أن أتغاضي عن المنطق القائل بضرورة التحرك وأهمية التقدم إلى الأمام والتفاعل مع الوهم، لنقلل من الملل ونجني بعض الثمرات ونستمتع ببعض اللحظات.

الإنسان المثالي مضطرب بشدة، مضطرب بصورة تفوق الاضطراب المقبول، والإنسان المتمرد على كل شيء، مضطرب بصورة مشابهة، أما الاضطراب الطبيعي، فإنه راقد في المنتصف.

التحدث عن الموت باستمرار، لا يعني الخوف أو التشاؤم أو الكآبة أو التوقف عن التحرك إلى الأمام بأي شكل من الأشكال، فمن الممكن لمن يتحدث عنه في تتال أن يكون ذا نظرة متفائلة، ومن الممكن لشخص يضحك باستمرار أن يكون سوداويا يرقد الحزن في أعماقه، وهو ما يعبر عن غموض النفس واضطراباتها وتعدد أشكالها، رغم ماهيتها الموحدة. وفي نفس الوقت، لا يمكنني أن أتغاضي عن بيئة الموقف وظروف الحدث والسياق المعتمد بأشكاله المتنوعة.

الإنسان المتمرد يشعر بأن هناك من يراقبه، ومهما حاول أن يتخلص من هذه الأفكار، تجددت وتشعبت وتعمقت. ولا يتوقف الأمر عند هذه النقطة فحسب، بل من الممكن أن يطور كرها شديدا تجاه كل ما هو تقليدي، ومن الممكن أن يمقت المجتمع وكل ما يتصل به بصورة كلية، رغم أن الحل يكمن ببساطة في التقليل من حجم التمرد والعودة به إلى المعيار الطبيعي القادر على إثبات كون الإنسان إنسانا قبل كل شيء، لأنه ليس بملاك، وليس بشيطان، لكنه راقد في المنتصف، فإن

قطن المكان الصحيح، قل التوتر وأصبح طبيعيا دون مبالغة أو نقصان.

رغم أهمية العقاب، إلا أن الرحمة تمثل الملاذ، ومن الضروري التحدث عن الرحمة وتطبيقها باستمرار واعتدال، فعلينا أن نكون رحماء عند التعامل مع بعضنا البعض وعلينا أن نتقبل الشرور الكامنة بداخلنا ومن الضروري أن نتخلص مما نستطيع أن نتخلص منه.

لا تجلس مع الشياطين لتحدثهم عن الملائكة و لا تجلس مع الملائكة لتحدثهم عن الشياطين، اجلس مع الإنسان، تعرف عليه، تقبله، وادعوا له بالرحمة والنجاة.

الحياة المادية وصراعات لقمة العيش والتحرك الاضطراري، كلها أمور قادرة على قتل الإحساس، ورغم ذلك قد لا يشعر المرء بنفسه دونها، وقد يمثل الأمر برمته طبيعة الحياة ومسارها القادر على تحويل قلب إنسان إلى قطعة حجر.

من الصعب بالنسبة للإنسان أن يقدم إنجازات عظيمة لفترة طويلة، فالتأرجح يمثل الوتيرة والتنقل بين الجانبين يعبر عن الحقيقة.

يحاول الإنسان أن يستجلب الأجواء الدافئة باستمرار، وكلما تقدم في السن قلت قدرته على استجلابها.

الأمر بأكمله يعود إلى الإله، وحكمة الإله لا يمكن لأحد أن يدركها، وقدرته لا يمكن تخيلها أو التعرف عليها بصورة تامة.

من الضروري تقبل التوصيفات السيئة الناجمة عن أفعالك، لأنها توصيفات عارضة من الممكن التخلص منها باللجوء إلى النقيض، وتكمن أهمية التقبل في الاعتراف، الاعتراف الذي يمثل الخطوة الأولي نحو إصلاح النفس قدر المستطاع.

لا تشعر بالضيق حينما تنال منك التوصيفات المجتمعية الشرسة، فمن الممكن إصلاح الموقف، ومن الممكن أن تبحث عن فرصة جديدة، فأنت إنسان قبل كل شيء.

من الممكن لرجل الدين أن ينال منه الغرور، ومن الممكن له أن يشعر بالتفوق على من حوله، لكن الحقيقة تخبرنا بأن نجاته تكمن في التواضع، كما هو الحال مع الجميع.

من الضروري أن نحترم رجال الدين (لا تجاره)، خاصة هؤلاء الذين يساعدوننا على التقدم إلى الأمام وانتظار رحمة الإله، ورغم ذلك لا يوجد وسيط بين العبد والإله.

كثيرا ما أعجبتني تلك العقليات التي تحترم كل الآراء، تلك العقليات التي تحكم على الأمور بعيدا عن العواطف، وتقحم العقل في السياق حينما يحتاجه.

من الضروري أن ندرك حقيقة أن الجنة درجات وأن الرحمة الإلهية أمنية الجميع، ورغم ذلك لا بأس بالتحدث عن العقاب حتى نحاول أن نردع أنفسنا عن التعمق في أفعال الشر.

يتحدث كتاب اللّٰه عن الرحمة والعقاب بشكل واضح، ومن الضروري أن نتأمل العقاب لنبعد أنفسنا عن الشرور، وفي نفس الوقت يعد انتظار الرحمة والنجاة أمرا لا غنى عنه.

عندما يتحدث أحدهم مع إنسان قد ظهر فسوقه وتمكن منه، يراوده سياق معروف، سياق يتلخص في جانبين، أحدهما يتمثل في الإحساس بالزهو والتقوى وإغلاق أبواب الرحمة أمامه، والآخر يتجسد في مساعدته وإخباره عن رحمة الإله وأهمية العدول عن أفعاله، ولا بأس ببعض الكلمات عن العقاب، تلك الكلمات التي تسعى نحو حثه على التخلص من الشرور. ورغم ذلك من الأفضل لمن تمكن منه الشر أن يعتمد على نفسه ويسارع بالتخلص مما أصابه، فهو إنسان راشد قبل كل شيء، ولا وسيط بينه وبين الإله. لكن الأمر بأكمله لا يفعل دون الشرارة التي تحدث بداخله.

في الكثير من الحالات، تنجم النصائح عن ألسنة يفعل أصحابها ما ينهون الناس عنه.

عليك أن تتقبل النفاق البشري، لكن من الضروري أن تتقبل نفاق نفسك قبل كل شيء.

عندما يكشف لك أحدهم عن الحقيقة، قد تكرهه بشدة، ومن الممكن أن تنأي بنفسك عنه بتلقائية واضحة، رغم أن ما صدر عنه لم يمثل سوي الحقيقة، لم يمثل سوي الحقيقة الجارحة!

عندما يخبرك أحدهم بأن كل ما حولك لا يمثل سوي الشر، لا تكرهه، فإنه يخبرك بالحقيقة، يخبرك بالحقيقة التي رغم

قدرتها على إحداث الاضطراب بداخلك، إلا إنها قد تساعدك في التعامل مع زيف الكيانات التي تحوطك.

إنه لأمر محزن أن تكتشف في نهاية المطاف أنك لم تكن سوي مساعد للشيطان. وحينها يصبح من الضروري أن تسرع بالتخلص من الهيئة التي صرت عليها، بهدف العودة إلى الطريق الصحيح.

عندما يحين وقت النوم، لا تفكر سوي بالنوم، فالحياة لا تستحق كل هذا التفكير، والتجربة مكررة، فلا تسمح لتجربتك بأن تفقد البريق.

Ciao


العمل القادم:
تقوي العريد



معتز عرفان

مؤلف وناقد

في عمله الروائي القصير "نباح الكلاب في الباحة الخلفية"، يقدم عرفان رصدا لعشوائية العقل البشري ويعبر عن النفس المضطربة لبطل الرواية بسرعة وخفة، لكن السؤال المحوري الذي يهتم به العمل هو، هل يعرف بطل الرواية نفسه حقا؟ وهل الإنسان قادر علي إدراك مساره بصورة ممكنة؟

دار عرفان للنشر